الفصل الأول

﴿ خلفاء العصر العباسى الأول ﴾

١٣٢ - ٢٣٢هـ/٧٥٠ - ٨٤٧م

١ – أبو العباس عبد الله بن محمد بن على ١٣٢-١٣٦هـ/ ٧٥٠-٧٥٤م

٢ – أبو جعفر المنصور ١٣٦ – ١٥٨هـ/ ٧٥٤ – ٧٧٥م

٣ – محمد المهدى ١٥٨ – ١٦٩هـ/ ٧٧٥ – ٧٨٥م

٤ – موسى الهادى بن المهدى ١٦٩ – ١٧٠هـ/ ٧٨٥ – ٧٨٦م

٥ – هارون الرشيد ١٧٠ – ١٩٣هـ/ ٧٨٦ – ٨٠٩م

٦ – محمد الأمين١٩٣ – ١٩٨هـ/ ٨٠٩ – ٨١٣م

٧ – عبد الله المأمون ١٩٨ – ٢١٨هـ/ ٨١٣ – ٨٣٣م

٨ – محمد المعتصم ٢١٨ – ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ – ٨٤٢م

٩ – هارون الواثق بالله ٢٢٧ – ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ – ٨٤٧م

قيام الدولة العباسية

أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس

(١٣٢ - ١٣٦هـ/ ٧٥٠ - ٧٥٥م)

أول خلفاء بنى العباس ولد بالحميمة فى ربيع الآخر، سنة ١٠٤هـ/ ٧٢١م، على أرجح الآراء، بويع بالخلافة فى صباح يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ، بمسجد الكوفة. وهناك تشابه فى السماء بينه وبين عمه عبد الله بن على مما جعل بعض المؤرخين يطلقون عليه اسم عبد الله الأصغر، وعلى عمه عبد الله الأكبر.

بعدما تلقى البيعة من جموع أهل الكوفة ألقى خطبته المشهورة التى فيها أهداف الدولة العباسية، وأحقية بنى العباس فى الخلافة، وعرض ببنى أمية تعريضا جارحا، ثم أشاد بأهل الكوفة وقال: "يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمكم علينا، وقد زدتكم أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح". يميل كثير من المؤرخين إلى تلقيب أبى العباس باسم (السفاح) نظرا للجملة التى ختم بها خطبته، ولقد ثار جدل علمى لطيف بين المرحومين الأستاذ أحمد أمين، أم ينسب إلى عمه عبد الله بن على، وكان من رأى أستاذنا العبادى أن أبا العباس برئ من هذا الاتهام، وأن عمه عبد الله هو صاحب هذا اللقب واستند فى رأيه على أدلة متعددة نذكر

١ - لم يرد بالنصوص التاريخية الموثوق بها والتى يستعمل أصحابها طريقة الإسناد مثل الطبرى، واليعقوبى، والبلاذرى اسم أبى العباس مقرونا بلقب السفاح، وقد نجد هذا اللقب أحيانا فى فهارس هذه الكتب أو فى بعض العناوين ولكن هذا من صنع الناشرين والناسخين بدون شك.

٢ - يذكر ابن قتيبة الدينورى صراحة فى كتابه "الإمامة والسياسة" أن السفاح هو عبد الله بن على والمعروف أن ابن قتيبة من مؤرخى القرن الثالث الهجرى الثقات.

٣ - كتاب أخبار مجموعة فى فتح الأندلس "مؤلفه مجهول" من الكتب القيمة، ويعتمد عليه المؤرخون المحدثون فى تاريخ الفترة الأولى من حكم المسلمين فى الأندلس، هذا الكتاب يشير بوضوح إلى أن السفاح هو عبد الله بن على وليس الخليفة "أبو العباس"، يقول صاحب الكتاب: وقتل مروان فى مصر، فسير برأسه إلى السفاح فى الشام، ثم سير برأسه إلى أبى العباس.. ثم يقول: "وأخذ السفاح يمثل بأهالى الشام فقتل النساء والصبيان".

٤ - الكتب التى نسبت لقب السفاح إلى أبى العباس مثل: كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، وكتاب مروج الذهب للمسعودى وغيرهما هى كتب يقصد بها جمع الأخبار والروايات الطريفة التى يستمتع القارئ بقراءتها دون النظر إلى تحقيق العلمى الصحيح. وربما نسب بعض المؤرخين لقب السفاح إلى الخليفة أبى العباس لأنه هو المسئول عما يقع فى عهده من أحداث، أو ربما يكون التباسا حدث من جراء تشابه الأسماء.

٥ - الأخبار التى ذكرتها المراجع التاريخية عن أبى العباس تدل على أنه كان شخصية متصفة بكثير من صفات الخير، مثل اللين والوداعة والتؤدة والعفة، أراد خالد بن صفوان أن يزوجه على امرأته أم سلمة، وكانت عجوزا، فأبى وتعفف، ولم يتخذ عليها جارية يتسرى بها مثلما كان شائعا فى ذلك الوقت، وهذا وفاء نادر فى تلك الفترة. ثم أن أبا العباس اختير للخلافة لا لأنه سفاح مستبد، وإنما لحسن شمائله التى تجذب حوله القلوب، ولهذا قدم إلى الخلافة على أخيه أبى جعفر المنصور وكان المنصور أكب منه سنا ولكنه كان موصوفا بالشدة والبطش.

على أن بعض الآراء ترجع إلى المعنى اللغوى للفظ (السفاح) حيث يدل على كثرة الهبات والعطايا والمنح، فقد أورد الأستاذ Bevan ترجمة هذا اللفظ (السفاح) بمعنى كثير العطاء وعنه نقل الأستاذ Nicholson ومع ذلك فقد شاع استعمال هذا اللفظ فى الكتابات الأوربية بمعنى سفك الدماء، ولكن قليلا من

المستشرقين المعتدلين لا يزالون يشكون فى هذا المعنى الأخير. نذكر منهم - De Goje الذى يميل إلى هذا الرأى ويترجمه بمعنى Munificent أى كثير العطايا والمنح ويقال أن سلمة بن خالد الذى قاد بنى تغلب فى موقعة بنى كلاب الأولى سمى السفاح، لأنه أفرغ زاد جيشه قبيل الموقعة. والحقيقة أن أبا العباس بعيد عن هذا الوصف السيئ الذى شاع خطأ عنه، وكل ما يؤخذ عليه أنه وافق على قتل أبى سلمة الخلال نقيب دعاة العباسين فى الكوفة، أو حرض عليه، وأن كان البعض يلتمس له العذر فى ذلك بينما البعض الآخر يقول أن هذه كانت رغبة أبى مسلم الخراسانى.

ومهما يكون من اختلاف الآراء حول أبى العباس فقد أعلن قيام الدولة العباسية وأصبح هو أول خلفائها وكان عليه أن يواجه قوتين لهما خطرهما الأول تتمثل فى مروان بن محمد أخر خلفاء بنى أمية وكان موجودا بالجزيرة، والثانية تتمثل فى يزيد بن هبيرة الذى اتخذ من مدينة واسط مقرا له بعد نزوحه من الكوفة.

وكان من الطبيعى أن يتجه العباسيون أولا إلى القضاء على الدولة الأموية، وإزاحة مروان حتى تدعم أركان دولتهم الجديدة وتستقر لهم الأمور بإعلان زوال الخلافة الأموية.

القضاء على الدولة الأموية:

أرسل الخليفة أبو العباس جيشا كبيرا بقياة عمه عبد الله بن على، للقضاء على مروان بن محمد، وكان مروان قد جهز جيشه الذى بلغ تعداده مائة وعشرين ألف جندى، وفى صبيحة اليوم الثالث من جمادى الآخر سنة ١٣٢هـ سأل قائد جيش العباسين عبد الله بن على عن مخاضه فى نهر الزاب الأعلى، فدله البعض عليها، ومنها عبرت النهر جيوش بنى العباس يدفعها النصر الذى أحرزته فى خراسان والعراق من قبل، وتسيطر روح معنوية عالية على الجنود، بينما على النقيض منذ ذلك كانت حال الجيش الأموى الذى انهارت روحه المعنوية، وفقد جنوده السيطرة على أنفسهم أمام الهزائم المتوالية التى أصيبوا بها، لدرجة أن

ضعف أيمان مدتهم بالصمود والتمسك بما فى أيديهم من مدن وأصقاع، رغم الأعداد الهائلة والعدة الوفيرة فى السلاح.

وفى صباح يوم السبت ١٢ جمادى الآخر ألتقى الجيشان، ودارت رحى الحرب بين الجنود، وسرعان ما أصابت الهزيمة جيش مروان بعد أن تبعثرت جنوده، وتخلخلت صفوفه، ولم يقو على الثبات أمام الجيش أمام الجيش العباسى، وأصبحت موقعة نهر الزاب موقعة فاصلة فى تاريخ الدولة الأموية حيث فتحت أبواب الشام بعدها أمام الدولة العباسية الناشئة، وأخذت المدن الشامية موئل بنى أمية ومركز تجمعهم تسقط الواحدة بعد الأخرى فى أيدى العباسيين، فقد انسحب مروان بفلول جيشه إلى الموصل، وتتبعه عبد الله بن بجيش العباسيين، ولم يجد مروان أهل البصرة تعضيدا أو ترحيبا، فاضطر إلى مواصلة انسحابه أو قراره إلى حران، ولحق عبد الله بن على وجيشه بالأمويين ودخل حران فاستسلم عاملها أبان بن يزيد ابن محمد بن مروان - ابن أخى الخليفة وزوج ابنته - ودخل فى طاعة العباسيين وليس شعارهم، فأمنه عبد الله على حياته وحياة أهل حران وأهل الجزيرة. سار مروان إلى حمص فأعانه أهلها فى أول الأمر، ومكث بها ثلاثة أيام، ولكن رأوه منهزما ثاروا عليه، ووقفوا فى وجهه ولكن مروان تمكن من إخضاعهم، ثم اتجه بعد ذلك إلى دمشق وكان عليها الوليد بن معاوية بن مروان، وهو زوج ابنته كذلك أبقاه، وأمره أن يقاتل العباسيين وان يجمع عليه أهل الشام. وتقدم الجيش العباسى المنتصر وحاصر دمشق حتى سقطت فى يده، ودخلها جنود العباسيين عنوه يوم ٦ رمضان ١٣٢هـ وقتلوا أعدادا كثيرة من أهلها، وكان عاملها الوليد بن معاوية من ضمن القتلى، وأمر عبد اله بن على بهدم سور المدينة حتى لا يتحصن أهل الشام بداخلها.

واصل الخليفة الأموى مروان بن محمد تقهقره إلى الجنود حتى نزل نهر أبى فطرس بفلسطين، واستجار بعبد الله بن يزيد الخزاعى فأجاره، وفى هذه الأثناء وصلت أوامر الخليفة العباسى أبى العباس إلى عمه عند ملاحقة مروان وعدم تركه يستقر فى مكان خشية أن يقوى ويستعيد صفوفه ويعاود الهجوم على جيش العباسيين. وفى سبيل تحقيق ذلك أمده بجموع من الجند على رأسهم عمه الثانى

صالح بن على، الذى تركت له قيادة الجيش للقيام بهذه المهمة، ومعنى ذلك أن عبد الله بن على سوف يبقى فى دمشق يدبر شئونها واليا عليها من جانب الدولة العباسية.

سار القائد الجديد صالح بن على بالجيش حتى وصل إلى فلسطين، ومنها انحدر نحو العريش التى كان مروان بن محمد قد وصل إليها من قبل، فلما أحس بملاحقة العباسيين له، واصل السير هربا حتى وصل إلى جنوب مصر، ونزل فى قرية بوصير وعندها أدركه الجيش العباسى وفى ظلام الليل هجمت جنود العباسيين على مروان والقلة القليلة التى معه فأفنوهم عن آخرهم، وكان ذلك فى اليوم الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢هـ. ثم قطعت رأسه وحملها يزيد بن هانئ إلى عبد الله بن على فى دمشق فبعث بها إلى الخليفة العباسى بالكوفة، فلما وضعت أمامه سجد لله ثم رفع رأسه وقال:

"الحمد لله الذى أظهرنى عليك، وأظهرنى بك، ولم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك أعداء الدين". وبذلك يكون أبو العباس قد نجح فى إسقاط الدولة الأموية وقضى عليها، وتخلص من العقبة الكبرى التى كانت تعترض استقرار دولته ولم يبق أمامه سوى العقبة الثانية متمثلة فى ابن هبيرة.

القضاء على يزيد ابن هبيرة فى واسط:

كان يزيد بن عمرو بن هبيرة قائدا مغوارا وبطلا محاربا لا يستهان به، اتصف بالشجاعة والإقدام، وصلابة الرأى والتمسك به متى ظن أنه على حق، جمع الكوفة والبصرة تحت حكمه، وحينما دخلت جنود أبى مسلم الخراسانى العراق، واضطر يزيد إلى الانسحاب نصحه مستشاروه والمقربون إليه من أتباعه بألا يدخل مدينة واس حتى لا يصبح محاصرا من جيش العباسيين وقالوا له:

وإياك وواسط، فتصير فى حصار، وليس بعد الحصار إلا القتل". وأشاروا عليه بأن يضرب معسكره على الفرات حتى يأتى إليه مروان بن محمد وجنوده، وتتجمع قوى الأمويين لمواجهة العباسيين ولكنه أصر على رأيه خشية على نفسه من مروان، الذى كان يبعث إليه بالأوامر والتعليمات فكان يزيد لا يعمل بها ولا ينفذها. ولهذا اضطر يزيد إلى دخول واسط والتحصن بها: وحدث ما كان متوقعا

فقد ضرب الجيش العباسى عليه وعلى أتباع داخل واسط أحد عشر شهرا، لم ينشب خلالها بين الجانبين إلا مناوشات حربية، وقد عبر ابن الأثير عن هذا الوضع بقوله: "ورجع أهل الشام يقصد الأمويين فكر عليهم الحسن بن قحطبة بن شبيب الطائى قائد جند العباسيين واضطرهم إلى دجلة فغرق منهم ناس كثير، فقتلوهم بالسفن وتحاجزوا، فمكثوا سبعة أيام ثم خرجوا إليهم فاقتتلوا وانهزم أهل الشام هزيمة قبيحة، فدخلوا المدينة فمكثوا ما شاء الله لا يقاتلون إلا رميا".

ويبدو أن غيلان بن عبد الله الخزاعى أحد قواد الجنود العباسيين، كان واجدا على قائده للحسن بن قحطبة، فطب من الخليفة العباسى أبى العباس أن يرسل إليهم رجلا من أهل بيته، فأجابه أبو العباس: أو ليس عليكم رجل من أهل بيتى، الحسن ابن قحطبة! قال غيلان: يا أمير المؤمنين! من علينا برجل من أهل بيتك ننظر إلى وجهه، وتقر أعيننا به: فقال أبو العباس: نعم غيلان. فأرسل أخاه أبو جعفر المنصور ليتولى أمارة الجيش العباسى، الذى كان تحت قيادة الحسن بن قحطبة، ويشارك فى قتال أبن هبيرة فى واسط وكتب إلى الحسن بن قحطبة: "إن العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخى حاضرا فاسمع له وأطع وأحسن مؤازرته" وكتب إلى مالك بن الهيثم بمثل ذلك وكان مالك قد أتى على رأس جيش من سجستان مؤازرة للحسن بن قحطبة، فلما قدم أبو جعفر المنصور على واسط أنزله الحسن بن قحطبة فى خيمته، ويظل هو المدبر لشئون هذا الجيش ولكنه كان يتلقى أوامره من أبى جعفر المنصور.

طالت مدة الحصار ويئس يزيد بن عمر بن هبيرة من إحراز نصر على العباسيين الذين تزايدت قوتهم، خاصة وأن إسماعيل بن عبد الله القسرى حمل إلى ابن هبيرة خبر مقتل الخليفة الأموى مروان، وزوال الدولة الأموية، وقال لمن فى واسط: "علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان" فبدأ أصحاب ابن هبيرة يختلفون معه، وتفرقت كلمتهم. فاليمانية لا تريد الحرب خاصة بعد الذى أصابها على يد مروان بن محمد قبل مقتله. والنزارية لا تريد الحرب إلا إذا قاتلت اليمنية معها. وأنتهز الخليفة العباسى أبو العباس فرصة هذا الخلاف وتمكن من ضم اليمانية، وهم أصحاب ابن هبيرة وأتباعه إلى جانبه، فأعطاهم عهده ووعدهم

وأطعمهم. ومن ناحية أخرى أدرك أبو جعفر المنصور مدى الاضطراب الذى أصاب ابن هبيرة، ولكنه كان يعرف جيدا أن ابن هبيرة لديه من قوة الإرادة وصلابة الرأى ما يمكنه من الصمود وإطالة مدة الحصار فلجأ إلى المساومة الدبلوماسية، وجرت بينه وبين ابن هبيرة - عن طريق سفراء له - محادثات للصلح، وكتب المنصور لابن هبيرة كتاب أمان، ولكنه كان متشككا، فاخذ يشاور قيه العلماء والفقهاء والمقربين إليه أربعين يوما حتى رضية وأرسل بموافقته على هذا الأمان إلى أبى جعفر المنصور، فأرسله أبو جعفر إلى أخيه أبى العباس فأمر بتوقيعه وختمه، وهذه فقرات من نص هذا الأمان.

"بسم الله الرحمن الرحيم. . . . هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن على، ولى أمر أمر المسلمين، ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم فى مدينة واسط وأراضيها من المسلمين والمعاهدين، أنى أمنتكم بأمان الله الذى لا إله إلا هو، الذى يعلم سرائر العباد، ويعلم ما تخفى الصدور، وإليه الأمر كله أمانا صادقا لا يشوبه غش ولا يخالطه باطل على أنفسكم وذريتكم وأموالكم وأعطيت يزيد بن هبيرة ومن أمنته فى أعلى كتابى هذا الوفاء بما جعلت لهم من من عهد الله وميثاقه. . . عهدا خالصا مؤكدا. . . وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق، ولمن معك من المسلمين وأهل الذمة، بعد استثمارى فيما جعلت لك منه أمير المؤمنين، أعو الله نصره، فأمر بإنقاذه لكم، فاطمئن إلى ما جعلت لك من الأمان والعهود والمواثيق، وثق بالله وبأمير المؤمنين فيما سلم منه ورضى به، وجعلته لك ولمن معك على نفسى، ولك على الوفاء بهذه العهود والمواثيق. . . وجعلت لك ألا ترى منى انقباضا، ولا مجانية ولا ازورارا، ولا شيئا تكرهه فى دخولك على إلى مفارقتك إياى ولا ينال أحد معك أمرا يكرهه، وأذنت لك ولهم فى المسير والمقام، وجعلت لهم أمانا صحيحا. . . " .

وضعت الحرب أوزارها بين الفريقين، والتزم أبو جعفر المنصور بما أعطاه لابن هبيرة من مواثيق، وخرج الأخير إلى أبى جعفر المنصور فى ألف وثلاثمائة من أتباعه وكان راكبا دابته، فقابله سلام بن سليم حاجب أبى جعفر، مرحبا به، وأمره بالنزول فى لطف، وسمح له بالدخول وحده، فجلس عند أبى جعفر ساعة

ثم أنصرف، وأخذ يتردد عليه يوما بعد يوم، وكان يأتيه فى خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل، فقال يزيد بن حاتم لأبى جعفر: أن ابن هبيرة ليأتى فيتضعضع له العسكر، وما نقص من سلطانه شئ، فأمره أبو جعفر إلا يأتى فى حاشيته، فكان يأتى فى ثلاثين ثم أصبح يأتى فى ثلاثة أو أربعة.

دامت الأحوال بين الطرفين على هذا المنوال مدة من الزمن، حتى وثق كل منهما بالآخر لدرجة أن أبا جعفر المنصور أمر برفع الستر بينه وبين ابن هبيرة واطمأن إليه وكان يقول لأصحابه: "عجبا لمن يأمرنى بقتل مثل هذا". والواقع أن أبا جعفر كان راغبا فى الالتزام بعهده ومواثيقه التى أعطاها لأبن هبيرة لولا تخل أبى مسلم الخراسانى. فمن المعروف أن أبا العباس كان لا يتخذ قرارا إلا بعد الرجوع إلى أبى مسلم، وكان قد كتب إليه يخبره بأمر ابن هبيرة والأمان الذى أعطاه له، فكتب أبو مسلم إلى أبى العباس يقول "إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة". فكتب أبو العباس إلى أخيه أبى جعفر يأمره فيه بقتل ابن هبيرة، فأبى أبو جعفر أن يقدم على هذا الأمر وكتب لأخيه يقول: لا أفعل وله فى عنقى بيعة وإيمان. فكتب إليه أبو العباس يقول: "والله لتقتلنه أو لأبعثن إليه من يخرجه من حجرتك ثم يتولى قتله". وعندئذ اضطر المنصور إلى تنفيذ أوامر أبى العباس وتلمس لابن هبيرة خطأ بسيطا أوقعه فيه سوء حظه حينما كان يتحدث إليه، حيث قال للمنصور: يا هذا، وكانت ذلة لسان تعود عليها فى أحاديثه مع أتباعه ومرءوسيه فى الكوفة، وتداك ابن هبيرة الأمر لتوه، وأسرع يعتذر للمنصور عن هفوة اللسان، ولكنه اتخذها حجة وذريعة، ودبر لابن هبيرة مؤامرة ليتخلص منه.

بعث أبو جعفر المنصور رجلين من خاصته هما الهيثم بن شعبة بن ظهير، وخازم بن خزيمة، وأمرهما بختم بيوت الأموال فى واسط (أى مصادرتها): ثم بعث إلى كبار أتباع ابن هبيرة من القيسية والمضرية فأحضرهم، فأقبل محمد بن نباته، وحوثرة بن سهيل فى اثنين وعشرين رجلا، فخرج حاجب أبى جعفر المنصور (سلام بن سليم) واستدعى ابن نباته، وحوثرة، فأدخلا حجرة دون حجرة أبى جعفر بها بعض خواصه ومائة من رجاله فلما دخل ابن نباته وحوثرة، نزعت سيوفهما منهما ثم كتفا. وظل الحاجب يستدعى رجلين رجلين يفعل بهما ذلك:

فقال بعضهم: أعطيتمونا عهد الله ثم غدرتم بنا، أنا لنرجو أن يدرككم الله ثم قتل الجميع غدرا.

بعث أبو جعفر المنصور هؤلاء الرجال، الذين نفذوا أوامره وقتلوا ابن نباته وحوثرة ومن معهما، بعثهم إلى يزيد بن هبيرة ليحملوا ما عنده من أموال، فقال ابن هبيرة لحاجبه: دلهم على الخزائن ! وبدلا من أن يتجه الرجال مع الحاجب إلى خزائن بيت المال، أخذوا يتلفتون ذات اليمين وذات الشمال ليتأكدوا من عدم وجود من يدافع عن ابن هبيرة، وعرف المسكين نية الغدر التى بينها له القوم، وكان معه ابنه داود، وبعض من مواليه، وابن صغير له يجلس فى حجرة، واتجه هؤلاء الرجال بشراستهم نحوه، فتصدى حاجبه لهم: دونكم هذا الصبى ونحاه جانبا ثم خر ساجدا فقتلوه فى سجوده، ثم قطعت رؤوسهم جميعا، وحملت إلى أبى جعفر المنصور وبذلك تمكن العباسيون من إزاحة العقبة الثانية والأخيرة من طريق استقرار دولتهم بعد قيامها.

موقف أبو العباس من بقية الأمويين:

رأى أبو العباس أنه لا يقر لدولته قرار إلا إذا أتى على من بقى من بنى أمية ومن ناصرهم وتشيع لهم، فسار على سياسة الانتقام والأخذ بالثأر دون هوادة أو ملل، فى سبيل ذلك لجأ الخليفة أبو العباس إلى الحيلة والخديعة فأعلن عفوا عاما عن الأمويين، ونادى لهم بالأمان، وخدع الأمويين بهذا الأمان، وظهروا من أماكنهم التى اختبئوا فيها وتواروا عن الأنظار. ولكن أبا العباس لم يلبث أن أنقض عليهم ونكل بهم وقتلهم فى كل مكان وجدوا به، فقد تعددت حوادث القتل هذه مدن الشام والعراق إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. وانتهز كثيرا من الشعراء هذه الفرصة واغتنموها للتكسب الرخيص، فحرضوا الخليفة أبا العباس على القسوة والعنف ضد بنى أمية، لينالوا رضاه ويكون لهم حظوة عنده، فكثرت قتلاهم بشكل واضح، لدرجة أن بعض المؤرخين أفردوا فصولا فى مؤلفاتهم بأسماء هؤلاء القتلى وكيفية قتلهم. يروى ابن الأثير أن مولى أبى العباس (حذيفا الشاعر) دخل عليه وكان فى حضرته سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموى وقد أكرمه فأنشد يقول:

لا يغرنك ما ترى من رجاح أن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وأرفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان: قتلتنى أيها الشيخ وفعلا أمر أبو العباس بقتله فقتل. ودخل شاعر أخر هو شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم عند عبد الله بن على فوجد نحوا من تسعين رجلا من بنى أمية قد جلسوا إلى الطعام، فقال شبل أبياتا من الشعر ختمها بقوله:

واذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذى بحران أضحى ثاويا بين غربة وتناس

فغلى الدم فى عروق عبد الله، وهاجت مشاعر الغضب والحقد فى صدره، فأمر بضربهم حتى قتلوا جميعا، فبسط عليهم الفرش، وأخذ يأكل ويسمع حشرجة الموت فى صدور بعضهم حتى خمدت أنفاسهم جميعا.

ولم يكتف الخليفة أبو العباس بقتل الأحياء من الأمويين والتنكيل بهم بل أمر بنبش قبور موتاهم فى دمشق، فنبش قبر معاوية بن أبى سفيان، وقبر يزيد ابنه وقبر عبد الملك بن مروان، وقبر هشام ابنه، ومثل برفات بعضها، ولم يسلم من هذه القبور سوى قبر عمر بن عبد العزيز لحسن سيرته، وشيوع عدله.

كان من الطبيعى وقد زالت العقبتان الأساسيتان من طريق دولة بنى العباس أن توضع مقاليد الحكم فى الإمارات والأقاليم فى أيدى أفراد من بنى العباس أنفسهم، حتى يضمن الخليفة أبو العباس فى هذا الجانب نجاحا كبيرا، فأسند ولاية البصرة وأعمالها إلى عمه سليمان بن على، وكانت بمثابة مكافأة له لقضائه على بقايا الأمويين الموجودين بهما وكان قد أعفاه من ولايته على الكوفة وسوادها، وأسندها إلى ابن عمه عيسى بن موسى. ولم تدم ولاية داود بن على على مكة والمدينة سوى ثلاثة أشهر، فقد توفى فى ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ، وكان قبيل وفاته استخلف ابنه موسى بن داود، فلما بلغت أخباره إلى الخليفة أبى العباس أرسل خاله زياد بن عبد الله الحارثى واليا على مكة والمدينة والطائف واليمامة. ومن المدينة بعث زياد رجلا من أتباعه هو إبراهيم بن حسان السلمى المعروف بأبى

حماد الأبرص إلى اليمامة حيث قتل المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة وقتل معه بعض أصحابه. كذلك أرسل أبو العباس عمه إسماعيل بن على واليا على الأهواز وفارس، وأقر عمه عبد الله بن على وأخاه صالح بن على فى ولاية دمشق وحمص وقنسرين والأردن، وكتب إلى أبى عون عبد الملك بم يزيد وأقره على ولاية مصر، وجعل خالد بن برمك على ديوان الخراج.

الثورات ضد أبى العباس:

أولا: الثورات فى الشام والعراق:

على الرغم من الشدة والقسوة التى لجأ إليها الخليفة أبو العباس فى القضاء على خصومه لتثبيت أركان دولته، ولإرهاب من يفكر فى التصدى للدولة العباسية الناشئة، فقد قامت بعض الثورات، وكان من أخطرها تلك الثورة التى اندلعت فى الشام بزعامة أبى الورد مجزأة بن الكوثر الكلابى، الذى كان من أصحاب مروان وقواده، فقد خلع الثوار السواد شعار العباسين ولبسوا البياض ولذلك عرفوا باسم المبيضة. وقد انتشرت هذه الثورة فى حمص وقنسرين ولكنها انتهت بمقتل أبى الورد وهو يقاتل فى خمسمائة من أصحابه فى أواخر ذى الحجة سنة ١٣٣ هـ.

وفى نفس العام هبت فى الجزيرة ثورات مماثلة لبس الثوار البياض فيها وأعلن الثوار خلع الخليفة أبى العباس، وكان على رأس الثائرين إسحق بن مسلم العقيلى الأرمنى، ودار قتال شديد بين الثوار وأتباع الدولة العباسية، وانتهى الأمر بالصلح بين الفريقين وإعطاء إسحق العقيلى أمانا مؤكدا من أبى جعفر المنصور ويبدو أن سياسة الملاينة التى أتبعها المنصور فى على ولاية الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، وبقى عليها حتى استخلف.

ولم تكد تنتهى ثورة الجزيرة حتى اندلعت ثورة أخرى فى الموصل، فأرسل الخليفة أبو العباس أخاه يحيى ومعه ١٢ ألف مقاتل لإخمادها فلما وصل يحيى ومن معه نزل قصر الأمارة جوار المسجد الجامع وأمر فلودى: "من دخل المسجد فهو آمن" فهرع الناس إلى المسجد فغدر بهم وقتل منهم حوالى ١١ ألفا ولما استغاثت نساء القتلى أمر بقتلهن مع أطفالهن، ولم يرع فى ذلك الحرمات.

لهذه الأسباب يلقب بعض المؤرخين أبا العباس بلفظ السفاح، ويتهمونه بأنه أقام دولة العباسيين على الدماء والتنكيل بالأبرياء، والغدر بالأنصار (أبو سلمة الخلال) وعدم احترام العهود والمواثيق (ابن هبيرة)، وقد سار على هذا المنوال أبو جعفر المنصور وبعض من خلفاء بنى العباس وربما كانت مجريات الأحداث، والظروف التى أحاطت بالخليفة أبى العباس ومن جاء بعده هى التى أجبرتهم على أتباع أسلوب الشدة فى مواجهة خصومهم، ودفعتهم إلى الحرب لإقامة دولتهم، وربما لجئوا إلى ذلك من قبيل بث الرعب والخوف فى قلوب من يفكرون فى إزاحة الدولة العباسية فى مهدها ممن يتطلعون إلى الزعامة أو الإمامة , ومهما تكن الأسباب فإنه من المؤسف حقا أننا نجد فى مصادر التاريخ نصوصا تشير إلى أن بعضا من حكام المسلمين كانوا يلجئوا إلى سياسة الانتقام والقضاء على الخصوم متعللين بأوهام، ومنتحلين أضعف الأسباب، ظنا منهم أن القضاء على الخصوم على الخصوم حتى ولو كانوا مثلهم مسلمين سيمكن لهم فى الحكم، ويطيل أعمار دولتهم التى أقاموها على الغدر والحلية والخديعة والدماء، وإتباع أساليب بعيدة عن الدين والشرف والكرامة ونسى هؤلاء الحكام أو تناسوا أن أحداث التاريخ لا تنسى، وأن عجلة الزمن تدور مهما طال هذا الزمن وأن دوام الحال من المحال، وأنهم كما فعلوا بخصومهم سيفعل بهم. ولو أنهم لجئوا إلى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله، واتخذوا من العقل والعفو عند المقدرة وسيلة لتجميع القلوب حولهم، لتغير وضع العالم الإسلامى، ولكانت كثير من دولة فى وضع أحسن وأقوى وأقدر على من أوضاعها، التى وصلت إليها نتيجة لما ورثته من خلافات وصراعات غذتها ونمتها عصبيات تقليدية، أو انتماءات مذهبية، أو أفكار سياسية غير ناضجة.

من هذه الدراسة الموجزة لتلك الثورات نجد أنها انتقلت من فلسطين إلى الشام ثم إلى الجزيرة، فكأنها زحفت تدريجيا إلى مركز الخلافة، غير أنه يلاحظ أن هذه الثورات كانت تقوم منفردة، وكان ينقصها عنصر التضامن والوحدة بين المشتركين فيها والمتزعمين لها، مما يجعلنا نقرر أنها كانت رد فعل لحوادث محلية نتجت من اعتداءات الجنود الخراسانيين على أهالى تلك المدن، ودليلنا على ذلك

ما ذكرته المراجع المعاصرة لهذه الحقبة من وصف عن فظاظة وغلظة ووحشية هؤلاء الجنود وما ارتكبوه من أعمال فى المدن التى دخلوها.

هذه الإضطرابات كان لها أثرها على الدولة العباسية الناشئة، حيث صرفتها عن تأمين حدودها، وبذلك تشجيع الروم على مهاجمة منطقة الثغور الشمالية، وتخريب بعض حصونها وقتل أهلها، فجهز الخليفة أبو العباس حملة أسند قيادتها إلى عمه عبد الله لإعادة الأمن فى هذه المنطقة سنة ١٣٣ هـ، غير أن القدر لم يمهله، مما دعا عبد الله أن يستخدم هذا الجيش فى تحقيق أطماعه فى الخلافة ولم يستتب الأمن فى منطقة الثغور إلا فى عهد المنصور.

ثانيا: الثورات فى المشرق الإسلامى:

على الرغم من أن المشرق الإسلامى كان فى يد أبى مسلم الخراسانى فقد ارتفعت فيه بعض الأصوات، وثارت بعض الجماعات ففى سنة ١٣٣هـ خرج شريك بن شيخ المهرى عن طاعة أبى مسلم ببخارى بسبب ما أرتكبه من إراقة دماء، وأعتبر هذا العمل خروجا على أصل الدعوة لاكتساب الرضا من آل البيت النبى، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفا فوجه أبو مسلم إليه جيشا كثيفا بقيادة زياد بن صالح الخزاعى فقاتله قتالا شديدا حتى قتله وقضى على ثورته.

وفى سنة ١٣٤هـ انشق بسام بن إبراهيم بن بسام، وكان من فرسان أهل خراسان، ومعه جماعه حيث خرجوا جميعا عن عسكر الخليفة أبى العباس سرا فى غسق الليل، وتوجهوا إلى المدائن فلما علم أبو العباس بأمرهم وجه إليهم خازم بن خزيمة فقاتلهم بعنف، وقتل منهم جموعا كثيرة، فانهزموا وفروا إلى مدينة ما، فأخذ خازم يتعقبهم ويقتل كل من لحق به منهم، حتى قضى على هذه الثورة تماما. وفى طريق عودته مر بقرية كان يسكنها أخوال الخليفة أبى العباس، وهم من بنى الحارث، فبلغه عنهم أنهم سمحوا لرجل من الفارين من أتباع بسام بالنزول عندهم أثناء فراره، فلما سألهم قالوا له: مر بنا رجل غريب لا نعرفه فأقام فى قريتنا ليلة ثم خرج عنها. فأخذ خازم يعنفهم ويتهمهم بأنهم يأوون عدو أمير المؤمنين فأغلظوا له فى القول، فأمر بقتلهم جميعا، وهدم بيوتهم، ونهب أموالهم. فلما بلغ خبره إلى الخليفة أبى العباس حنق عليه وأراد أن يقتله، ولكن

البعض نصحه بعدم الإقدام على ذلك خشية أحداث شرخ فى كيان الدولة، خاصة وأن خازما مطاع فى قومه، وله سابقة فى خدمة الدعوة العباسية، وأشروا عليه بأن يبعث به إلى الخوارج الموجودين بجزيرة ابن كاووان، وزعيمهم شيبان بن عبد العزيز اليشكرى، وكانوا صفرية، وإلى الخوارج الموجودين بعمان، وزعيمهم الجلندى، وكانوا أباضية، فإن انتصر كان انتصاره نصرا لك ولدولتك، وان انهزم وقتل، بلغت الذى أردت. فأمر الخليفة أبو العباس بتوجيهه مع ٧٠٠ رجل وكتب إلى عمه سليمان بن على فى البصرة لكى يوفر لهم السفن لنقلهم إلى هذين المكانيين.

سار خازم وقد انضم إليه جموع من أهل بيته وبنى عمومته ومواليه ورجال من مرو، كما انضم إليه فى البصرة جموع بنى تميم، ووصلوا إلى جزيرة ابن كاووان فأرسل مجموعة من جنود تبلغ الخمسمائة بقيادة فضلة بن نعيم النهشلى لمحاربة شيبان ومن معه من الخوارج وانهزم شيبان وأصحابه بعد قتال مرير، وانسحبوا فى السفن فارين إلى عمان، فتصدى لهم الجلندى بجنوده وقاتلهم حتى قتل شيبان ومن معه. وهكذا وفر الجلندى على خازم مؤونة ومشقة القتال ضد شيبان، ولو أن الجلندى سمح لشيبان ومن معه بالانضمام إليه لمواجهة خازم ومن معه لتغير الموقف، ولتمكن الخوراج من إنزال هزيمة مرة به.

وصل خازم ومن معه ونزلوا على ساحل عمان، فلقيهم الجلندى، ودار بين الفريقين قتال على درجه كبيرة من العنف والضراوة، وسقط كثير من أتباع خازم قتلى، ولكنهم تمكنوا فى اليوم التالى من إحراز نصر كبير على الجلندى وأتباعه، فقتلوا منهم تسعمائة وأحرقوا تسعين آخرين. وفى اليوم السابع للقتال أشار رجال خازم أن يأمر أتباعه بوضع المشاقة على أسنة الرماح وأن يشعلوها وأن يحرقوا بها بيوت أصحابها بإطفائها، وعندئذ انقض عليهم خازم وأتباعه فأفنوهم عن أخرهم , وقطعت رؤوسهم وأرسلت إلى البصرة، ومنها أرسلت إلى الخليفة أبى العباس وقد بلغ عدد هؤلاء القتلى عشرة آلاف قتيل.

وفى سنة ١٣٥ هـ، خرج زياد بن صالح وهو فى بلخ على طاعة أبى مسلم الخرسانى فسار إليه أبو مسلم فى جموع من جنوده من مرو، فوصل إلى آمل وكان فى صحبته سباع بن أبى النعمان الأزدى، الذى كان قد أوعز إلى زياد بن صالح

أن يثب على أبى مسلم ويقتله، فلما بلغت أخباره لأبى مسلم أمر بحبسه فى آمل، وواصل سيره إلى بخارى فلما وصلها أتاه حشد من أهلها فأعلنوا خلع زياد بن صالح عن ولاية بلخ، وأخبروا أبا مسلم بأن سباع بن أبى النعمان هو الذى أفسده فكتب أبو مسلم غلى عامله على آمل وهو الحسن بن الجنيد أن يضرب سباعا مائه جلده، ثم يضرب عنقه ففعل ذلك.

ومع تحرك هذه الانتفاضات، ونشوب هذه الثورات، فقد تمكن أبو مسلم الخراسانى من مهاجمة بلاد ما وراء النهر سنة ١٣٤ هـ، كما أرسل فرقا من جنوده لغزو بعض المناطق فى أطراف هذه البلاد، فحملوا إليه غنائم كثيرة من متاع الصين مثل الحرير والديباج والخزف والمزخرف والمطعم بالذهب، والسروج الصينية وطرف الصين التى لم ير مثلها، ويعتبر هذا أول ذكر عن المغانم من الصين فى المراجع العربية والإسلامية، كما أن صلات العرب ببلاد الصين بدأت الصين منذ تلك الفترة.

وعلى الرغم مما كان لأبى مسلم من منزلة عند الخليفة أبى العباس - كما أسلفنا - إلا أن أبا جعفر المنصور كان يحرضه على قتله ويقول له: "لا سلطان لك مادام هناك أبو مسلم، أطعنى واقتل أبا مسلم، فو الله إن فى رأسه لغدره. وكان من الطبيعى أن يتأثر الخليفة أبو العباس بكلام أخيه أبى جعفر فبدا يحقد عليه، ولكنه كان يفكر فى المتاعب التى تنجم له وللدولة العباسية الناشئة مازالت فى حاجة ماسة إلى جهود أبى مسلم وجنوده من الخراسانيين. على أن يتغير أبى العباس على أبى مسلم ظهر عندما أراد أبو مسلم أن يحج، وكان معه عشرة ألاف من خاصته، وكان يفكر فى أن تكون له إمارة الحج وأراد أن يقدم على أبى العباس فى هذه الضجة البشرية، ولكن أبا العباس كتب إليه أن يصحب معه ألف جندى فقط من أتباعه، لأن طريق الحج لا يحتمل هذا العدد الكبير من الجنود، وفى نفس الوقت كتب إلى أخيه أبى جعفر المنصور أن يحج هذا العام ١٣٦ هـ، لتكون له أمارة الحج بدلا من أبى مسلم الذى رغب فيها. خاف أبو مسلم من تعليمات الخليفة أبى العباس فاحتاط للأمر، ولجأ إلى الحيلة، وفرق ثمانية آلاف من جنوده فيما بين نيسابور والرى ليكونوا على مقربة منه، وجمع الأموال وحفظها بالرى، ومنها خرج فى ألف جندى من خاصته كما أمره أبو العباس، فلما وصل إلى مقر

الخلافة استقبله أبو العباس، وأكرم نزله، وطيب خاطره وقال له: "لولا أن أبا جعفر سبقك وطلب أن يكون أميرا للحج هذا العام لجعلت الإمارة إليك هذا العام".

وكان من الطبيعى أن يتبرم أبى مسلم من هذا الصنيع فعبر عن تبرمه بقوله: "أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا !!".

أما عن المغرب العربى فقد خرجت عن طاعة العباسيين، حيث تمكن عبد الرحمن الأموى من الدخول إلى الأندلس، وتكوين دولة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية وتسمى باسم عبد الرحمن الداخل، وتصدى لمحاولات أبى جعفر المنصور فى إسقاط الدولة الأموية بالأندلس، وقضى عليها لدرجة أن أبا جعفر لقبه بصقر قريش.

استمرت خلافة أبى العباس أربع سنوات وتسعة أشهر، أعلن فى بدايتها عن قيام الدولة العباسية، وقضى على العقبتين الكبيرتين اللتين كانتا حجر عثرة فى قيام هذه الدولة، واعتمد على أبى مسلم الخراسانى وأبى سلمة الخلال وأخيه أبى جعفر المنصور، وشاركه فى هذه الأعمال كلها وفى القضاء على الثورات التى انتشرت هنا وهناك أعمامه عبد الله بن على، وأخوه داود وصالح، وعندما استقرت له الأمور تخلص من أبى سلمة الخلال، وترك أبى مسلم لأخيه أ[ى جعفر المنصور، كما أنه نقل العاصمة إلى الأنبار حيث تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات، وفى الشمال شرقى العراق. وظلت الأنبار عاصمة الدولة العباسية حتى تم بناء بغداد فى عهد أبى جعفر المنصور. يعتبر أبو العباس أول من أوجد منصب الوزير فى الدولة الإسلامية حيث خلع هذه اللقب على أبى سلمة الخلال ولقبه بوزير آل محمد، ثم جاء بعده الجهم بن عطية. وعندما أحس أبو العباس بدنو أجله عقد الخلافة من بعده لأخيه أبى جعفر المنصور، وجعله ولى عهد المسلمين، على أن تكون الخلافة بعد أبى جعفر لعيسى بن موسى بن محمد ابن على، وكتب أبو العباس عهده بذلك، وختمه بخاتمه، وأشهد عليه أهل بيته، ثم دفعه إلى عيسى بن موسى. وكانت وفاة أبى العباس فى الثانى عشرة من ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ، وأختلف المؤرخون فى تقدير عمره يوم وفاته فكانت ما بين

٢٨، ٣٦ سنة، كما اختلفوا فى المكان الذى دفن فيه، وإن كانت الأغلبية منهم تؤكد أنه دفن فى مدينة الأنبار، ولكنهم لا يعرفون مكان المقبرة التى دفن فيها، ويبدو أن العباسيين كانوا يخافون من نفس المعاملة التى أتبعوها مع خصومهم بنى أمية، فأخفوا قبورهم فى أول الأمر وطلوا كذلك حتى عصر الخليفة المستنصر الذى يعتبر أول من شيد لنفسه قبرا معروفا فى بنى العباس.

صفات أبى العباس وأخلاقه:

أجمعت المراجع التاريخية على أن أبا العباس كان من أجمل الناس وجها، أبيض البشرة ذا شعر أجعد، ولحية، أقنى الأنف، طويل القامة وكان كريما حليما وقورا، عاقلا كاملا، كثير الحياء، حسن الأخلاق. سخى اليد، كثير العطاء والهبات، والدليل على ذلك قصته مع أبى دلامة حين كان واقفا بين يديه، فقال له: سلنى حاجتك يا أبا دلامة! فقال: كلب أتصيد به، قال: أعطوه إياه فقال أبو دلامة: ودابة أتصيد عليها، فوافق أبو العباس، فقال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه فأنعم أبو العباس عليه بجارية. فقال هؤلاء عبيدك يا أمير المؤمنين، فلابد لهم من دار يسكنونها، فأمر بإعطائه دارا. فقال: فإن لم تكن لهم ضيعه فمن أن يعيشون؟ قال: أعطيتك مائه جريب عامره ومائه غامرة. فقال وما المغامرة يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافى بنى أسد فضحك الخليفة أبو العباس وقال: اجعلوها كلها عامرة فقبل أبو دلامة يده.

أبو جعفر المنصور

١٣٦ - ١٥٨هـ/٧٥٤ - ٧٧٥م

عندما توفى أبو العباس كان أبو جعفر المنصور على إمارة الحج فقام عيسى ابن موسى يأخذ البيعة له، وكتب إليه ذلك فوصلته هذه الأخبار وهو راجع من الحج فى ضواحى مكة، فأسرع بالعودة إلى الأنبار حاضرة دولة العباسيين.

يعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، لأنه قضى على ثورات المنافسين لحكمة، أعطى الدولة عاصمة ممتازة هى عاصمة بغداد، ونظم الدواوين، وتمركزت الإدارة فى بغداد، التى أصبحت حاضرة الإمبراطورية الإسلامية.

تولى أبو جعفر المنصور الخلافة وكانت الأخطار لا تزال تحيط بدولة العباسيين الناشئة، هذه الأخطار تتمثل فى ثلاث جهات هى:

أولا: كانت الجبهة الأولى من هذه الأخطار تتمثل فى عمه عبد الله بن على ويعرف بعبد الله الأكبر، فقد رأى عبد الله هذا أنه أحق بالخلافة من أبى جعفر المنصور، فأخذ ينافسه وينازعه عليها، وزعم أن أبا العباس حينما أرسله لقتال مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وعده بالخلافة من بعده:

وشهد له جماعة بذلك والواقع أن الذى شجع عبد الله الأكبر على هذا التمرد وجود قوة حربية كبيرة من عرب الشام والجزيرة وجند خراسان أنصار بنى العباس تحت يده. فأعلن الخروج عن طاعة المنصور، وأعلن خلعه من الخلافة، وبايع لنفسه فى الشام، واستقر بجيوشه فى حران واستعد لمواجهة المنصور بالحرب إذا لزم الأمر ذلك.

أسرع الخليفة أبو جعفر المنصور فأرسل جيشا من الخراسانيين بقيادة أبى مسلم، وضم إليه جموعا من أتباع العباسيين، لمواجهة عمه عبد الله بن على ويقال أن أبا مسلم خرج لهذا القتال وهو كاره: ربما حرص منه على أرواح بنى جلدته من أهل خراسان الذين كانوا فى جيش عبد الله وخشيته أن يتعرضوا للقتل بيد إخوانهم فى جيش أبى مسلم، أو بيد قائدهم عبد الله بن على نفسه إذا أحس

منهم عنهم الرغبة فى محاربة إخوانهم القادمين فى جيش أبى مسلم. وقد حدث فعلا أن عبد الله حينما بلغته أخبار تحريك جيش خراسان بقيادة أبى مسلم ضده خشى من الخراسانيين الذين فى جيشه أن يخرجوا عليه أثناء القتال أو يتآمروا عليه بحكم ولائهم لزعيم الخراسانية أبى مسلم فأمر جياش بن حبيب - صاحب الشرطة - بقتلهم منهم أعدادا كثيرة بالغ بعض المؤرخين فى تقديرهم وقدرهم سبعة عشر ألفا.

دار القتال بين أبى مسلم وعبد الله بن على واستمر حوالى ستة أشهر وانتهى بعد معركة عنيفة فى شمال الشام بهزيمة عبد الله بن على وأتباعه فى ٧جمادى الآخر سنة ١٣٧هـ/ نوفمبر٧٥٤م. وقد أعلن أهل الشام فى بادئ الأمر استعدادهم لمساعدة عبد الله بن على نكاية فى أبى جعفر المنصور، ولكنهم أخلفوا وعدهم له لكراهيتهم له ولبنى العباس عموما، فأدى هذا إلى هزيمته وهزيمة أتباعه. وفى رأينا أن أسباب الهزيمة ترجع إلى حذق ومهارة أبى مسلم الخراسانى نفسه: لأنه تظاهر عند خروجه من العراق بأنه يريد الشام، وأرسل إلى عبد الله بن على يطمئنه ويقول له: "إن الخليفة قد ولانى الشام ولم أؤمر بقتلك". ولم تطل هذه الخدعة على عبد الله بن على الذى كان متحصنا فى مدينة نصيبين فى شمال الجزيرة، وهى مدينة إستراتيجية هامة، ولكنه اضطر لتركها لأن الجنود الشاميين فى جيشه طلب منه السير إلى الشام لحماية أهليهم من بطش أبى مسلم. واضطر عبد الله بن على إلى استجابة مطلبهم ولكنه لم يكد يترك نصيبين حتى تحول أبو مسلم بجيشه إليها مسرعا واستولى عليها. عندئذ رأى عبد الله بن على أنه لا مفر من الاصطدام بأبى مسلم وجيشه، إلا أنه كان يخشى تمرد وعصيان الجنود الخراسانية فى جيشه، فأمر بقتلهم ليتخلص منهم كما أشرت إلى ذلك.

فر عبد الله بن على فى قلة من خاصته إلى أخيه سليمان وكان واليا على البصرة وبقى مختفيا عنده، إلى أن حصل سليمان له على الأمان من أبى جعفر المنصور فى سنة١٣٩هـ/ ٧٥٦م، فأرسله إليه مع بعض قواده وخاصة أصحابه، ولكن أبا جعفر المنصور غدر به وسجنه ومن معه، فظل بسجنه إلى أن مات فيه سنة١٤٧هـ/ ٧٦٤م، وإن كانت بعض الروايات التاريخية تلصق تهمة قتله بأبى جعفر المنصور نفسه.

لم يكتف أبى جعفر المنصور بقتل عمه عبد الله بن على: بل خاف من عم آخر له هو صالح بن على، الذى واصل مطاردة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية إلى مصر وقتله فيها، فكافأه آنذاك أبو العباس (السفاح) بأن جمع له ولاية أفريقية ومصر وفلسطين، والأردن، فلجأ أبو جعفر المنصور إلى وضعه تحت مراقبته، وأخذ يعزله من ولاية هذه البلاد الواحدة بعد الأخرى، ويوليه بلادا قريبة من العراق حتى أتى به إلى الجزيرة نفسها. وبذلك تخلص مع منافسه عمه عبد الله وأمن على نفسه من منافسه العم الأخر، وأصبح قادرا على مواجهة جبهة أخرى يكمن فيها الخطر، ولم تكن هذه الجبهة سوى أبى مسلم الخراسانى نفسه.

ثانيا: كان أبو مسلم الخراسانى قائد ثورة العباسيين ضد الحكم الأموى، وإليه يرجع الفضل فى قيام دولتهم: لأنه أول من رفع راية العباسيين، وأشعل نار الثورة ضد بنى أمية فى خراسان، حتى هدم ملكهم. ولكن العداء كان مستحكما بين أبى مسلم وبين أبى جعفر المنصور منذ تولى أبى العباس (السفاح) الخلافة، فأخذ أبو جعفر يوغر صدر أخيه (السفاح) عليه، ويحثه على قتله، ويخوفه من خروجه عليه ويقول له: "أطعنى واقتل أبا مسلم، فو الله إن فى رأسه لغدرة". ولكن أبا العباس (السفاح) كان يحفظ لأبى مسلم الخراسانى ما قام به من جهود فى سبيل الدولة العباسية وكان يضع فى حسبانه ما يتمتع به من نفوذ واسع عند أهل خراسان، فلما تقلد أبو جعفر المنصور الخلافة صمم على التخلص منه، لأنه كان يرى فيه منافسا خطرا له فى حكم الدولة نظرا لهيمنته الكاملة وسلطانه ونفوذه فى خراسان: والطاعة العمياء من الجنود الخراسانيين له.

ازدادت خطورة أبى مسلم على وجه الخصوص بعد انتصاره على عبد الله بن على فتمادى فى زهوه وظهر تحديه للخليفة أبى جعفر المنصور عندما أرسل إليه مولاه أبا الخصيب ليحصى عليه المغانم التى أحرزها بعد هزيمة عبد الله بن على فتعرض أبو مسلم للمنصور بلسانه وشتمه ثم قال له: أمين على الدماء خائن فى الأموال؟ وأراد قتل الرسول لولا أن تدخل بعض خاصته فخلى سبيله فعاد أبو الخصيب وأبلغ المنصور بما حدث.

أسرف أبو مسلم الخراسانى فى قتل الأبرياء والتخلص من بعض كبار الدولة، لتصبح السيطرة مركزة فى يده وحده، فقتل سليمان بن كثير الخزاعى، أول

النقباء الأثنى عشر، دون أن يأخذ رأى الخليفة فى ذلك، كما تعهد بقتل أبى سلمة الخلال الملقب بوزير آل محمد.

يرى بعض المؤرخين أن قتل أبى مسلم الخراسانى يرجع إلى عداوة شخصية بينه وبين الخليفة المنصور، لأن أبا مسلم كان يستخف به وهو ولى للعهد ويكتب له "من أبى مسلم إلى أى جعفر" دون أن يقرن اسمه بولاية العهد، وعندما تأتيه كتب أبى جعفر المنصور: ينظر فيها ثم يلقى بها إلى مالك بن الهيثم فيقرأها ثم يضحكان استهزاء.

ومن ظواهر استخفاف أبى مسلم بالمنصور أنه عندما خرج أميرا على الحج وأبو مسلم وأتباعه فى معيته، لم يعط أبو مسلم للمنصور بالا أو التفاتا، وكان بتصرف كما لو كان هو الأمير، فكان يأمر بإصلاح الطرق، وكان يسارع فى تقديم الهبات والأعطيات حتى أصبح ذكر أبى مسلم على كل لسان، كما أنه تقدم بموكبه على موكب المنصور أثناء طريقهم للحج، وعند العودة أسرع بالرجوع ولم ينتظر المنصور وكان ذلك سببا فى تلقيه نبأ وفاة الخليفة أبى العباس السفاح قبل أن يعرفه أبو جعفر المنصور. وعندما أرسل إليه يعزيه كانت رسالته جافة ولم يهنئ فيه المنصور بالخلافة كما جرت عادة الرسائل فى مثل هذه المناسبات، ثم أنه أسرع بالعودة إلى موطنه، مما أظهروا بصورة الطامع فى تولى الخليفة.

ازداد خوف المنصور من أبى مسلم عندما لجأ الأخير إلى تقديم اسمه على اسم الخليفة المنصور نفسه فى الرسائل التى كان يبعث بها إليه، وكان خوف المنصور مبنيا على ما كان قد ادعاه أبو مسلم من قبل من أنه من ولد سليط بن عبد الله بن العباس: ومعنى هذا أنه ينتسب إلى بنى هاشم، وأنه على قدم المساواة مع المنصور وغيره من العباسيين، ولذلك لجأ المنصور إلى الحيلة والمكر والتدبير ليبعده عن مركز قوته، وحصنه المنيع خراسان، حيث الآلاف العديدة التى تلتف حوله ثم يضرب ضربته الكبرى ويتخلص منه بعد ذلك.

انتهز أبو جعفر المنصور وجود أبى مسلم فى شمال الشام بعد نجاحه فى القضاء على ثورة عمه عبد الله بن على، وأراد أن يمنعه من العودة إلى خراسان، إليه يستقدمه، استشعر أبو مسلم الخراسانى ما يدبر له، فأجاب: يولينى الشام

وخراسان لى، وأعلن تمنعه وكتب إلى المنصور يقول: "أنه لم يبق لأمير المؤمنين - أكرمه الله - عدو إلا مكنه الله منه. وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان: أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء. فنحن نافرون من قربك، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد، حيث تقارنها السلامة. فإن نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى" ومعنى ذلك أن أبا مسلم عارض الخليفة المنصور وأحرجه وأوحى إليه بأنه يستشعر ما يدبره له فى الخفاء. فكتب إليه المنصور ينكر عليه شكوكه ويهدئ من روعه فقال: "قد فهمت كتابك وليس صفتك صفة أولئك الوزراء الغشة ملوكهم، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فلم سويت نفسك بهم؟ وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه، وليس مع الشريطة التى اشترطها سماع منك ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها أن أصغيت إليها. وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجد بابا يفسد نيتك أو كده عنده من الباب الذى فتحه عليك".

ولم يكتف المنصور بهذا الرسالة فطلب من شيوخ بنى هاشم أن يكتبوا إليه يحذرونه من المعصية ويحرضونه على الطاعة للمنصور والتمسك بها. فكتبوا إليه بذلك، ودعوه للحضور عند الخليفة أبى جعفر، وتقديم فروض الولاء والطاعة وإبداء الاعتذار له، ولكن أبا مسلم لم يكن بالرجل اللين القناة أو القائد السهل المنال ويبدوا أنه ازداد حذرا وتحرزا. وهنا كان حنق المنصور وغضبه على أبى مسلم قد بلغ مبلغه، فبعث أبا حميد المروروذى إليه وقال له: "كلمة بألين ما تكلم به أحدا، ومنه أعلمه إنى رافعه وصانع به ما لم يصنعه أحد أن هو صلح ورجع إلى ما أحب. فإن أبى أن يرجع ويئست منه فقل له: يقول لك أمير المؤمنين: لست للعباس أن مضيت مشاقا ولم تأتى: وإن وكلت أمرك إلى أحد سواى، وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسى، ولو خضت البحر لخضته، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك فذهب أبو حميد فى نفر من أصحابه ممن يثق بهم، فتقدم على أبى مسلم بحلوان، فكلمه بأحسن الكلام وألينه، وأخذ يعظم مكانته عند أبى جعفر ويطعمه ويمنيه ويغريه. ومع هذا لم تلن قناة أبى مسلم الخراسانى،

خاصة بعد أن نصحه أتباعه بعدم الذهاب إلى الخليفة وخوفوه هذا الأمر. فقال لأبى حميد: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه، عندئذ أبلغه أبو حميد رسالة التهديد والوعيد التى تلقاها على لسان أبى جعفر المنصور فلما سمعها أبو مسلم، وجم طويلا، وانهزم رعبا. وواصل أبو جعفر المنصور تضييق الخناق على أبى مسلم الخراسانى فاستمال إليه نائب أبى مسلم فى خراسان وأوعز إليه بالخروج على أبى مسلم: ومناه بالولاية مكانه، فأخذ هذا النائب يدفع أبا مسلم ويحرضه على الذهاب إلى أبى جعفر المنصور، وتقديم الاعتذار له، وهو يعلم ماذا ينتظره فى بلاط المنصور.

توجه أبو مسلم - على كره منه - إلى لقاء أبى جعفر المنصور الذى انتقل إلى المدائن - على نهر دجلة - ليكون قريبا منه أثناء وصوله. وأرسل إليه وزيره أبا أيوب المورياني ليستقبله، وأمره أن يرسل إليه من يخبره أن أمير المؤمنين قد عزم على أن يوليه ما وراء بابه، ويريح نفسه ويتورع، وأن يبلغه هذا لا على أنه رسالة وإنما على أنه شيء عرفه، فسارع من نفسه ليبلغه. فأرسل أبو أيوب رجلا يثق به هو سلمة بن سعيد بن جابر ووعده شيئا كثيرا، ونفذ الرجل المهمة المرسومة له كأحسن ما يكون فلانت أسارير أبى مسلم وهو مقبل على المنصور. وزيادة فى التمويه على أبى مسلم أمر أبو جعفر المنصور الناس بالترحيب به وحسن استقباله حتى تزول عنه مخاوفه ويطمئن. ولما وصل إليه ودخل عنده أكرمه وقربه من مجلسه، وسمح له بالاستراحة فى خيمة خاصة أعدها له: كما سمح له بدخول الحمام ليزيد فى إكرامه، ثم أمره أن يعود إليه فى اليوم التالى بعد أن يستريح من عناء السفر.

دبر أبو جعفر المنصور الطريقة التى يتخلص بها من أبى مسلم فأمر رئيس حرسه الخاص عثمان بن نهيك ومعه أربعة من رجاله الأشداء بالتخفى وراء الستائر فى مجلسه، فإذا ضرب بيده على الأخرى (صفق) خرجوا وضربوا أبا مسلم بسيوفهم حتى يقتلوه. فلما حضر أبو مسلم إلى مجلس المنصور، وكان متوحشا بسيفه، استدرجه المنصور وجرده من سلاحه بحجة رؤية هذا السيف الذى غنمه أبو مسلم من عمه عبد الله بن على، وأخذ المنصور يقلب السيف بين يديه ثم وضعه تحت وسادته، وبذلك أصبح أبو مسلم تحت رحمة أبى جعفر لأنه أعزل لا يملك

سلاحا يدافع به عن نفسه، ثم أخذ المنصور فى محاكمته وتوجيه التهم إليه وكان يقرن كل تهمة من هذه التهم بالتأنيب والتقريع لأبى مسلم، ومن ضمن ما عدده المنصور عليه: قتله سليمان بن كثير داعى دعاة بنى العباس وادعاؤه أنه ولد سليط، وكتابه إلى بنى العباس (السفاح) ينهاه فيه عن الموات، وطمعه فى جارية عمه عبد الله بن على، والأموال التى جمعها فى حران، وكان أبو مسلم يعتذر عن كل تهمة ويبرر الأسباب التى دفعته إلى هذا العمل ولكنه لم يحتمل، وضاق بهذه التهم الصغيرة التى تضاءل أمام كفاحه وجهوده فى إقامة الدولة فقال: يا أمير المؤمنين! مثلى لا يقال له هذا ولا يعدد عليه مثل هذه الذنوب بعد بلائى وما كان منى؟

فأجابه المنصور: "يا ابن الخبيثة والله لو كانت أمة مكانك لأغنت إنما عملت فى دولتنا ويريحنا، واو كان ذلك إليك ما قطعت قتيلا". فكبر ذلك على أبى مسلم وانفجر قائلا: دع هذا فإنى أصبحت لا أخاف إلا الله. فشتمه المنصور وصفق بيده فخرج الحراس من خلف الستر وانقضوا على أبى مسلم وضربوه بسيوفهم فقتلوه، ولفوه فى بساط وألقوه فى نهر دجلة، وكان ذلك يوم ٢٥ شعبان سنة ١٣٧هـ/ فبراير٧٥٥م. وخرج الوزير أبو أيوب فصرف حاشية أبى مسلم وأتباعه الذين قدموا معه وزعم لهم أن أبا مسلم فى قيلولة عند أمير المؤمنين وأمر لهم بالجوائز فانصرفوا.

وبذلك تخلص المنصور من أبى مسلم الذى رأى فيه خطرا كبيرا على دولة بنى العباس بصفة عامة، وعلى حكمه شخصيا بصفة خاصة ودليلنا على ذلك ما قاله المنصور لعيسى بن موسى ولى العهد حينما أظهر عدم ارتياحه للطريقة التى قتل بها أبو مسلم فقال له: "يا أنوك، والله ما أعلم فى الأرض عدوا أعدى لك منه، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى فى حياته". وكذلك ما قاله حينما استغاث أبو مسلم به وقال: "يا أمير المؤمنين أبقينى لعدوك" فأجابه: "وهل لى من هو أعدى منك؟".

وقد عبر بعض المقربين من أبى جعفر المنصور عن أن خلافته الحقيقية تبدأ من يوم مقتل أبى مسلم الخراسانى، فعندما علم أبو جعفر بن حنظلة بمقتل أبى مسلم قال للمنصور: "يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم لخلافتك" وفى رأى

جمهرة المؤرخين أن أبا مسلم الخراسانى كان يستحق القتل فعلا، لأنه قتل نحو من ستمائة ألف فى حروبه، ولكن بيد غير يد الخليفة العباسى، لأن أبا مسلم كان فى نظرهم أميز شخصية فارسية منذ مقتل يزدجرد، آخر ملوك الدولة الساسانية، وأنه باعث للقومية الفارسية التى أخمدها الفتح العربى الإسلامى.

أوضح أبو جعفر المنصور للناس أن أبا مسلم خرج عن طاعته، وأنه نفذ فيه حكم من يخرج عن الإمام، كما كان أبو مسلم نفسه يحكم على من يخرج عليه. ثم اشترى خضوع قواد أبى مسلم وخضاعته بالأموال والهبات الكثيرة حتى رضوا وسكتوا ورجعوا إلى موطنهم وهم يقولون: "بعنا مولانا بالدرهم". هكذا أثبت أبو جعفر المنصور أنه على جانب كبير من الدهاء والتدبير والحزم يفوق كثيرا ما كان يوصف به أبو مسلم الخراسانى.

والحقيقة أن نهاية أبى مسلم الخراسانى لا تعتبر شيئا شاذا عما ألفناه فى دراسة التاريخ، فكثير من القواد العظام الذين لعبوا دورا خطيرا فى تأسيس الدولة وقيامها قديما وحديثا - انتهت حياتهم بمثل ما انتهت به حياة أبى مسلم. ذلك لأن هؤلاء القواد تكون لهم الكلمة الأولى المسموعة، والسلطان والنفوذ الواسع بين جنودهم بحكم اتصالهم بهم، ومعاشرتهم لهم، فإذا ما لعب الحظ دوره مع هؤلاء القواد وتمت الانتصارات على أيديهم وقامت الدولة بجهودهم، وجهدهم طغى سلطانهم واتسع نفوذهم فى مجالات الدولة، ولا يقفون عند حد معقول فى تنفيذ رغباتهم، لأنهم يرون أنفسهم أصحاب هذا النصر، وهذا المجد، وأن الأمر تم لصاحبهم (رئيس الدولة) بفضل جهودهم، فهم يشاركونه كل شئ، بل يفعلون كل شئ دون الرجوع إليه، وصفحات التاريخ الصادقة سجل لمثل ذلك.

فإذا كان صاحب الدولة بعيد الهمة، وله تطلعات للتغيير الإصلاح، لم يحتمل كل الذى يصدره عن قواده، وإذا اضطرته الظروف احتمله على مضض، منتهزا أول فرصة ليتخلص من هؤلاء القادة الذين أصبحوا عبء ثقيلا على صدره وعلى دولته. فهو يريد أن يجنى ثمرة هذه الأعمال كلها بمفرده، وينسبها إلى نفسه، بينما هؤلاء يرون أن هذا كله من آثارهم، ومن حقهم أن يجنوا الثمرة مثل رئيسهم. وقد عبر صاحب الفخرى عن هذا الوضع بقوله: "وكأن المخترع للدولة

يكون عنده من الدولة والتبسط ما تأنف منه نفوس الملوك فكلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به".

والحقيقة أن ما ذكرناه ينطبق على أبى مسلم الخراسانى، فهو بدون شك من نوابغ الرجال، وكبار القواد الذين أسسوا الدول العظام، ولولا ما يؤخذ عليه من كثرة ما قتل عند تأسيس الدولة العباسية لاعتبرناها من أكبر السياسيين، ولذلك ينزع بعض المؤرخين عنه صفة السياسى، ويحرمونه من لقب الداهية الذى يتوشج به أعظم الساسة والقواد، ويقتصرون فى القول على أنه كان من أصحاب القوة والعزيمة والثبات، ومع ذلك فهم يتهمونه بالجهل لقدومه على المنصور بعدما احتج به سليمان بن كثير كبير دعاة العباسيين، حينما قال له: "أتذكر قول الإمام لى: من اتهمته فاقتله؟". فإذا كانت هذه هى القاعدة التى كان يعمل بها وبمقتضاها أفلا يكون فيما صنعه مع أبى جعفر المنصور ما يدعوا إلى الشك والريبة فيه فيستحق به القتل؟ فهو إذا كان قادما على القتل بمقتضى القاعدة التى كان يحكم بها، وكثيرا ما نفذها، فلا يكون قتله إذا محلا للدهشة والاستغراب، فالحكمة تقول: أصنع ما شئت كما تدين تدان، وقد نبهنا القرآن الكريم إلى ذلك فى مواضع متعددة: "وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون". "وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

ظهور حركات الموالى:

كان من نتائج قتل أبى مسلم الخراسانى أن اضطربت أحوال خراسان وأعرب الفرس عن سخطهم على بنى العباس، وظهرت حركات ينادى أصحابها بالثأر له منها:

١ - حركة سنباذ المجوسى

ظهرت هذه الحركة فى نفس العام (١٣٧هـ/ ٧٥٥م). وكان سنباذ من إحدى قرى نيسابور وكان من أصحاب أبى مسلم وصنائعه. وعندما علم بقتل أبى مسلم ثار، ودخل فى طاعته أكثر أهل خراسان وخاصة أهل الجبال، فلما كثر أتباعه خضعت له نيسابور وقومس والرى: وتسمى فيروز اصبهيذ وزاد من نفوذه وقوته

أنه استولى على خزائن أبى مسلم التى كانت بالرى. ولكن أبا جعفر المنصور أرسل إليه عشرة آلاف فارس بقيادة جهور بن مرار العجلى فأنزلوا به الهزيمة وقتلوا من أتباعه من سنتين ألف رجل كما قتل سنباذ نفسه.

٢ - حركة الراوندية

ظهرت فى سنة١٤١هـ/ ٧٥٨م بقرية روائد إحدى قرى أصفهان، وتعتبر هذه القرية مهد حركة الراوندية، ولذلك نسبوا إليها، وقد لجأ أصحاب هذه الحركة إلى التستر وراء الجانب الدينى بطريقة ماكرة، وكان غرضهم إثارة نفوس المسلمين على الخليفة المنصور، وبس روح الكراهية ضده حتى يسهل عليهم الانقضاض عليهم فى ثورة عارمة: وكانت خطتهم ترمى إلى تأليه المنصور، ومن ثم أظهروا له الإجلال فى أول الأمر، ثم أخذوا يقدسونه ويجعلونه فى مصاف الذات الالهية، وكانت تلك طقوسهم التى كانوا عليها قبل الإسلام فلما قتل أبو مسلم عادوا إليها، وزعموا أن المسيح عليه السلام حلت فى على بن أبى طالب رضى الله عنه ثم فى الأئمة من بعده حتى انتقلت إليها أبى مسلم، فلما قتل انتقلت إلى أبى جعفر المنصور، فهو فى زعمهم (اله) وعبادته واجبة، وخرج زعيمهم - وكان رجلا أبرص يقال له الأبلق - فى جموع حاشدة منهم وأقبلوا إلى قصر أبى جعفر المنصور وهم يطوفون به ويصيحون أنت أنت (أى أنت الله). ومن الطبيعى لم يقبل المنصور منهم هذا الهراء، فقبض على رؤساتهم وسجن منهم حوالى مائتين، وصمم على محاربتهم والقضاء عليهم لخروجهم على الدين الحنيف.

ثار أتباع الراوندية على المنصور وتجمعوا ضده، وكانوا حوالى ٦٠٠ رجل واقتحموا السجون، وأخرجوا بعض رؤساتهم، ثم قصدوا المنصور، فخرج إليهم وفى ظنه أن أيديهم لن تمتد إليه بالأذى لتقديسهم له، ولكنهم ثاروا عليه فى مكان يسمى الهاشمية وحاطوا به، وكادوا يقتلونه لولا أن أغاثه رجل ملثم أخذ يدافع عنه ويقاتل بضراوة ليحميه وبقى على قتاله للراوندية حتى قتل منهم الكثير فانهزموا هزيمة ساحقة، فلما سكنت ساحة القتال، طلب المنصور منه أن يكشف عن نفسه، فأجابه: أنا معن بن زائدة يا أمير المؤمنين وكان المنصور أمر بالقبض عليه لأنه اشترك فى محاربة العباسيين مع القائد الأموى يزيد بن هبيرة وإلى

العراق فى معركة واسط ولكن معنا اختبأ ولم يخرج من مخبئه إلا وقت محاصرة الراوندية للمنصور وأحاطتهم به، حيث أبلى ذلك البلاء الحسن، فعفا عنه المنصور وأمنه على نفسه وماله وأهله وقال له: مثلك يصنع، وأحسن إليه، ولقبه بأسد الرجال، وكافأه بولاية اليمن.

يروى المسعودى أن معن بن زائدة دخل على أبى جعفر المنصور ذات يوم ففاجأه المنصور بقوله: هيه يا معن! تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم من أجل قوله:

معن زائدة الذى زيدت به شرفا على شرف بنو شيبان

إن عدا أيام الفعل فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فرد عليه معن بقوله:

كلا بأمير المؤمنين، إنما أعطيته لقوله:

ما زالت يوم الهاشمية زائدا بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكانت وقاء من وقع كل مهند وسنان

فتلطف المنصور ومن معه واستحسن منه العطاء على هذا المدح.

٣ - وفى سنة ١٥٠/ ٧٦٧م ظهرت فى سجستان حركة مماثلة يتزعمها رجل يقال له أستاذ سيس: وطالب بالثأر لمقتل أبى مسلم، وانضم إليه حوالى ثلاثمائة ألف من الفرس، واستولوا على كثير من مدن خراسان، فأرسل المنصور إليه جيشا تعداده عشرون ألف مقاتل بقيادة ولده المهدى، ومعه خازم بن خزيمة، ووقع أستاذ سيس فى قبضة خازم مع أسرته، وضرب أعناق الآلاف من أتباعه، وقضى على هذه الحركة المناوئة للدولة العباسية الناشئة سنة١٥١هـ/ ٧٦٨م. وبذلك أصبح المنصور قادرا على مواجهة الجبهة الثالثة وهى (العلويون والشيعة).

وليس معنى هذا أن حركات الموالى - أو ما يطلق عليه البعض، حركات الهرطقة الدينية - قد انتهت تماما فالمنادون بثأر أبى مسلم الخراسانى كثيرون، فقد ظهرت جماعة تسمت باسم (المسلمية أو بأبى مسلمية)، وكانوا يرون أن أبا مسلم

حى لم يمت وأنه سيعود ويملأ الأرض عدلا. على أن جماعة أخرى قالت بموته، وبانتقال الإمامة إلى ابنته فاطمة: وسموا أنفسهم الفاطمية انتسابا لها، وقد عرفت هذه الجماعات باسم الخزمية كذلك. وقد استمر تمرد هذه الجماعة إلى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢م) أى إلى أواخر العصر العباسى الأول.

ثالثا: ثورات العلويين:

أدرك العلويون أن العباسيون أبناء عمومتهم قد غرروا بهم حينما استغلوا نشر الدعوة العباسية تحت ستار (الرضا من آل بيت النبى) ثم استحوذوا على الخلافة دونهم، مع أنهم أحق منهم، لأنهم من وجهة نظرهم - أبناء الخليفة على بن أبى طالب وورثته السياسيون وأبناء فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، ولهم أحقية دينية لهذا النسب. ولذلك أخذوا ينابذونهم العداء، وينظرون إليهم كما كانوا ينظرون إلى مغتصبى حقوقهم منه بنى أمية، فشرعوا يناضلون بغية الوصول إلى حقهم فى الخلافة، ووقف العباسيون منهم - فى بادئ الأمر - موقفا لينا وحاولوا بكل الوسائل استرضائهم، فألانوا لهم القول، وأجزلوا لهم العطاء، ولمن العلويين ركبوا رؤوسهم: وتمسكوا بوجهة نظرهم فى أحقيتهم بالخلافة. وجادلهم العباسيون فى مراسلات كثيرة وأبانوا لهم عن أحقيتهم فى الخلافة وأيدوا رأيهم بما وقع فيه العلويين أنفسهم من أخطاء، وتركهم الأمويين وتنازلهم عن الخلافة لهم، وكان أبو جعفر المنصور أول من بعث بهذه المراسلات التى نوجز معانيها فيما يلى:

١ - فضل العباس فى الجاهلية والإسلام، غذ كانت له سقاية الحجيج وولاية زمزم، وأحقيته وتقدمه على العلويين لأنه عم النبى ﷺ والعصب مقدم فى الشريعة الإسلامية على (الماعون) أى السلالة من جهة الأمهات والبنات، ووجدوا من الشعراء من يؤيدهم فى ذلك مثل قول أحدهم:

أنى تكون وليس ذلك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

٢ - تنازل أبناء على بن أبى طالب عن الخلافة للأمويين، ومساندتهم لهم ورضاهم بالحياة الرغيدة الهانئة فى الحجاز بعيدا عن مراكز النضال السياسى يسقط دعواهم فى الخلافة وهم يشيرون بذلك إلى تنازل

الحسن بن على عن الخلافة فى عام الجماعة، وقبوله الأموال التى قدمها إليه معاوية.

٣ - نظرية الوصاية التى يتمسك بها العلويون ودعواهم أن النبى ﷺ أوصى لعلى من بعده، ولتكون الخلافة فى بيته أنكرتها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، ثم إن مبايعة على للشيخين على التوالى تسقط هذه الدعوى: لأنه من غير المعقول أن يوصى النبى ﷺ لعلى، ويتقدم عليه أبو بكر ثم عمر بن الخطاب.

٤ - بعض أئمة العلويين وهو جعفر الصادق من نسل الحسين ابن على وأمه أم فروة أخت أبى بكر الصديق، كان يروى أحقية العباسيين بالخلافة. ولكن العلويين وعلى رأسهم محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية ومعه أخوه إبراهيم لم يقبلوا أو يقتنعوا بالحجج والأدلة التى ساقها العباسيين، وتطلع محمد النفس الزكية هذا إلى الخلافة، فلم يبايع عبد الله أبا العباس السفاح، ولا أخاه أبا جعفر المنصور، فخشى المنصور على نفسه وعلو دولته أن هو ترك النفس الزكية وأخاه إبراهيم، فعمل على التخلص منهما، كما تخلص من عمه وأبى مسلم الخراسانى من قبل خاصة وأن بعض العباسيين زاد بقوله: " والله ما آمن وثوبه عليك فإنه ليس الذى ينام عنك، فر رأيك".

لجأ المنصور إلى الحيلة كعادته ليظفر بمحمد وأخيه إبراهيم، فاشترى رقيقا من رقيق الأعراب، وأعطى الرجل منهم بعيرا وبعيرين، وزودهم، ثم فرقهم فى طلبهما، فأخذ هؤلاء الرجال يتجسسون ويتحسسون عنهما فى كل مكان بظاهر المدينة.

كان المنصور قد طلب من زياد بن عبد الله عامله على المدينة أن يجد كذلك فى طلبهما، ووعده زياد بذلك، ولكنه ما لبث أن تراخى، ثم اتصل سرا بمحمد النفس الزكية وساعده على الهرب إلى اليمن ومنها سافر إلى السند، ثم دخل الكوفة ومنها عاد إلى المدينة، فلما علم المنصور بما فعل زياد اشتد عليه وعزله،

وصادر أمواله، وحبسه وولى مكانه محمد بن خالد القسرى، ولكنه ما لبث أن عزله لأنه استبطأه فى القبض عليهما، وولى مكانه رياح بن عثمان بن حيان بن عم مسلمة بن عقبة المرى، قائد موقعة الحرة فى عهد يزيد بن معاوية، فقدم رياح المدينة سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م واعتلى المنبر وألقى خطبة كلها تهديد ووعيد، شبيهة بخطبة الحجاج بن يوسف حين دخل العراق. ولكن أهل المدينة تصدوا له وأسمعوه ما يكره فكتب إلى المنصور وصور له سوء طاعة أهلها، فبعث المنصور إليهم كتابا يهددهم فيه، ومما جاء فى هذا الكتاب: " . . . وأمير المؤمنين يقسم بالله" لئن لم تنزعوا - عن المعصية - ليبدلنكم بعد أمنكم خوفا، وليقطعن البر والبحر عنكم، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام" ومع كل هذا ازداد أهل المدينة إنكارا لعامل المنصور وأهانوه فى المسجد حتى أضطر إلى الهرب داخل المقصورة وأحكامها عليه، ولكنه صمم على تنفيذ سياسة المنصور والتنكيل بالعلويين.

زج هذا العامل بوالد محمد النفس الزكية، وكان شيخا طاعنا فى السن وبأخوته وبقية عائلته فى السجن، وأخذ يسب محمدا النفس الزكية وأخاه إبراهيم على المنابر وفى كل المجالس وظلوا فى حبسهم حتى قدم المنصور لتأدية فريضة الحج، فعرضوا عليه بالأصفاد وهو بالربدة، فسألهم عن محمد وأخيه إبراهيم فلم يظفر بجواب فأمر بالتنكيل بهم، وإرسالهم إلى الكوفة، حيث سجن بعضهم، وقتل البعض الأخر بطريقة بشعة.

أخذ محمد النفس الزكية يدعوا إلى نفسه سرا وهو يعيش متخفيا فى المدينة فازدادت شيعته، ونشروا دعوته بين العلويين والهاشميين فى المدينة وغيرها واعترف الناس بإمامته فى مكة والمدينة وتلقب بأمير المؤمنين وساعده على ذلك ما تحلى به من صفات خلقية كريمة، وحبه للعفو والعدل والزهد والنسك وبعده عن الظلم وسفك الدماء حتى سمى بالنفس الزكية وبالمهدى.

أرسل محمد أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته، وبسرعة أحرز بعض النجاح هناك، بدليل ما ذكره المؤرخون من أن الناس أجمعوا على نصرته، واستشهادا بما ذكره نفسه فى خطبته التى ألقاها عند ظهوره حيث جاء فى

أخرها: " . . . والله ما جئت هذه وفى الأرض مصر يعيد الله فيه إلا قد أخذ لى البيعة" .

ظهور النفس الزكية فى المدينة والقضاء عليه:

فى أواخر جمادى الأخر سنة١٤٥هـ/ ٧٦٢م ظهر محمد النفس الزكية وكان مضطرا لأن يظهر نفسه بعد أن تحمل أهله ما لا يطيقون من تعذيب وتقتيل، ويبدو أن بعض أهل المدينة ضاقوا ذرعا بما لقوه من ولاة المنصور فقالوا له: "وما نجد فى هذه الأمة أحدا أشأم عليها منك، ما الذى يمنعك من أن تخرج وحدك" فاضطر إلى الخروج ومعه مائتان وخمسون رجلا فقبض على رياح بن عثمان والى المدينة، وتوجه إلى السجن وأخرج من فيه، واستولى على المدينة المنورة دون أن يريق دما، وانضمت إليه بيوتات قريش إلا نفرا قليلا، وساعد هؤلاء فى الانضمام إيه فتوى الإمام مالك فى جواز نقض البيعة التى أعطيت لأبى جعفر المنصور، لأن الناس أعطوها وهم مكرهون، وليس على مكره يمين. ويقال أن الإمام مالك لم يكن راضيا عن حكم العباسيين، وكان يتمنى أن يعود للمسلمين حكام مثل عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز، وكان يرى أن محمد النفس الزكية من هذا الطراز العظيم من الحكام. وربما كانت هذه الفتوى من العوامل التى جعلت أهل مكة يميلون إلى النفس الزكية ويسلموا أنصاره (مدينة مكة)، ولم يلبث إبراهيم أن استولى على البصرة وبايعه كثير من أهلها، ثم وصلته بيعة أهالى خراسان ومصر والشام، وأن بقى ولاة العباسيين بهذه الأقطار يتولون أمرها.

استشار المنصور أبا مسلم المعقيلى، وكان شيخا ذا رأى وتجربة وحكمة، فقال له: أرم محمد برجل مثله، فإن قال أنا من ولد رسول الله قال هذا: وأنا ابن عم رسول الله ﷺ فقال المنصور لأبن عمه وولى عهده عيسى بن موسى أما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش وأما أن تكفينى ما أخلف ورائى - يقصد عائلته - وأخرج أنا إليه" . فخرج عيسى بن موسى قاصدا المدينة فى أربعة آلاف فارس وألفى رجل، وتبعه حميد بن قحطبة فى جيش كثيف، ويقال أن المنصور أرسل إلى النفس الزكية يطلب منه الطاعة، وأن يتراجع عن خروجه ووعده بأن يطلق سراح جميع من فى سجنه من العلويين، ويدفع إليهم مليون درهم. ولكن النفس

الزكية رد عليه بقسوة واتهمه بأنه لا عهد ولا أمان له، ومن ضمن ما قاله له: أى أمان تعطنى، أمان ابن هبيرة الذى قتلته أم أمن عمك عبد الله، أم أمان أبى مسلم؟؟

وصلت القوة التى أرسلها المنصور مع عيسى بن موسى وحاصرت المدينة من كل جانب، ثم أرسل عيسى جموعا من جنده عسكروا فى طريق مكة ليعترضوا النفس الزكية أن فر إليها، ويبدو أن الخوف على محمد النفس الزكية تسرب إلى قلوب بعض خاصته فنصحوه بالذهاب إلى مصر، التى بايعت له عن طريق ابنه على، واتخاذها قاعدة للقتال، لأنها غنية بالرجال والمال، أو ينسحب إلى مكة، أو يلجأ من جديد إلى البادية، ولكن حنين بن عبد الله صاح مستعيذا أن لا يخرج النفس الزكية من المدينة، وحدثه أن النبى ﷺ قال: "رأيتنى فى درع حصينة فأولتها المدينة" فحفر محمد الخندق الذى كان الرسول ﷺ حفره مع أصحابه، ودارت مبارزات بين الفريقين تمكن محمد النفس الزكية من مبارزة سبعين رجلا من العباسيين وقتلهم.

صمد عيسى وساعدته كثرة رجاله وفرسانه بالنسبة للعدد القليل الذى بقى مع النفس الزكية - أكثر قليلا من ثلاثمائة - بعد أن انصرفوا عنه وكانوا أكثر من مائة ألف رجل فى أول الأمر - ووضعوا المعابر فوق الخندق، ودخلوا المدينة، وقتلوا كل من كان معه، ورغب فرسان عيسى عن قتله لحرمته وقرابته من الحسن ابن على، ولكن ابن قحطبة تجرأ عليه فقتله، وحز رأسه وأرسلها إلى عيسى بن موسى، وكان ذلك يوم الاثنين ١٤رمضان سنة١٤٥هـ وكان ابن خمس وأربعين سنة.

القضاء على إبراهيم فى العراق:

وجه أبو جعفر المنصور قائده المنتصر عيسى بن موسى لمحاربة إبراهيم فى العراق بعد أن أكتسب خبرة فى مقاتلة محمد النفس الزكية فى الحجاز وقصد عيسى بمن معه العراق حيث التقى بإبراهيم وأتباعه العلويين فى باخمرى بين الكوفة وواسط، وكان إبراهيم قد عسكر فى هذا المكان لقربه من المكان الذى قتل فيه الحسين رضى الله عنه، ولقربه من الكوفة التى اتخذها المنصور مركزا له،

ويبدوا أن إبراهيم اندفع إلى هذا المكان بسبب ما جاء من معلومات ورسائل من أهل الكوفة مركز العلويين منذ عهد على بن أبى طالب، فقد قالوا له: "إن بالكوفة رجالا لو رأوك لقاموا معك".

"إن بالكوفة مائة ألف سيف كامنة بإزاء عسكر العباسيين، ينتظرون صيحة واحدة". وصدق إبراهيم مثل هذا القول، ولم يتخذ الحيطة، ولم يعتبر بمواقف أهل الكوفة المترددة وضعف عزمهم وقولهم ما لا يفعلون، وانفضاضهم من حول على ومن بعده الحسين، فدارت الدائرة عليه كما سنرى.

التحم الفريقان فى القتال، على طريقة المبارزة صفا بعد صف، وأحرز إبراهيم بعض الانتصارات على جيش عيسى، وقتل بعضا من جنوده، ولكن عيسى صمد فى موقعه ولم يتحول عنه حتى يقتل، أو ينال النصر، وتختلف الروايات التاريخية حيث تنسب هذا الصمود تارة إلى حميد بن قحطبة، وتارة أخرى إلى عيسى بن موسى وكيفما كان الأمر استمر القتال بين القتال الفريقين، ولم يلبث أهل العراق أن تسللوا من الميدان وانسحبوا من المعركة، وتركوا إبراهيم فى قلة من أتباعه، وكان لابد أن تحيق بهم الهزيمة، ولعب ابن قحطبة نفس الدور الدنئ حيث اندفع إلى إبراهيم فأصابه فى عنقه، ثم حز رأسه وبعث بها على رمح عيسى بن موسى، الذى سجد لله شكرا. وانتهت الموقعة فى اليوم الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة١٤٥هـ/ سنة٧٦٢م، أى بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية بحوالى، تمكن المنصور من القضاء على العلويين وكانوا العقبة الثالثة والأخيرة من العقبات الخطيرة التى قابلته فى أول عهده بالخلافة.

العوامل التى أدت إلى هزيمة العلويين:

وقع العلويون فى أخطاء لعبت دورا كبيرا فى هزيمتهم، بل وساعدت إلى حد كبير فى القضاء عليهم، من هذه الأخطاء:

١ - عامل البيئة، فقد اختار محمد النفس الزكية المدينة لتكون مركزه الحربى الذى يوجه منه الضربات ضد خصومة العباسيين، وليست المدينة بالتى تصلح لهذا الغرض، لأنها - كما يصفها المسعودى فى ذلك الوقت وغيره من الجغرافيين والمؤرخين: "بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة

واسعة" فلو حوصرت، فلن تصل إليها الميرة والإمدادات. ومعنى هذا هلاك أهلها وما بها من مقاتلين جوعا وعطشا، ثم طريقة القتال التى أتبعها أنصار العلويين، تدل بوضوح على عدم القدرة على التخطيط الحربى والعسكرى، إذا أتبع محمد النفس الزكية النظام العربى الذى عفى عليه الزمن منذ أن دخل العرب الفاتحون فى معارك دامية مع الفرس والرومان، فقد لفظ خالد بن الوليد تلك الطريقة العربية ولجأ إلى تقسيم جيشه وتنظيمه ودفع بالجيش كله كتلة متراصة واحدة فأحرز بذلك الانتصارات الباهرة، ولكن النفس الزكية كان يقدم للحرب (صفا بعد الآخر) وكلما انهزم صف (أو مجموعة) قدم غيرها فسهل على عيسى ابن موسى هزيمتهم، لأن جيش العباسيين دخل القتال دفعة واحدة متمثلين بقول الله عز وجل: "إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص". إلى جانب ذلك فقد جهز المنصور جيشه بالأسلحة والمؤن، وواصل الإمدادات والأعطيات لهم، بينما ترك النفس الزكية هذه الأمور لأنصاره كل يجهز سلاحه ومؤونته بنفسه، وكان معتمدا فى ذلك على العاطفة الدينية التى أظهرها الناس للوقوف بجانبه ومناصرته فى عودته. وكان للإمامين مالك وأبى حنيفة دور كبير فى تأجج هذه العاطفة الدينية، فقد أفتى مالك رضى الله عنه بجوار نقض بيعة المنصور، وأيده الإمام أبو حنيفة فى ذلك.

٢ - انفضاض أنصار محمد وأخيه إبراهيم عنهما سواء كانوا فى الحجاز أو العراق، ويرجع السبب فى ذلك إلى ما أنزله ولاة المنصور بأهل الحجاز من تعذيب وتنكيل حتى ضاقوا زرعا بالعلويين وتمنوا خروجهم من المدينة بأى شكل وعلى أى صورة، وقد قدمنا كيف أن أحد الرجال قال للنفس الزكية: "ما نجد فى هذه الأمة أحدا أشأم عليها منك. . . ". أما فى العراق، فقد وصل عددهم مع إبراهيم إلى مائة ألف أو نحوا من هذا العدد، فهذه طبيعة أهل العراق، تذبذب فى الرأى وعدم استقرار على أمر، ونقض لما أعطوه من عهود بالأمس، وكأن الحجاج بن

يوسف الثقفى كـان قد سبر أغوار نفـوسهم حينما وصفـهم فى خطبته المشهورة بما وصفهم به.

٣ - دهاء المنصور وذكاؤه، بل مكره وخداعـه، فقد لجأ إلى نوع من الحرب النفسـية ضد أهل خراسان، الـذين انحازوا للعلويين انتقامـا لمقتل أبى مسلم، حتى يزعزع نفوسهم ويثبت همـمهم فأرسل إليهم رأس محمد ابن عبد الله بن عمرو بن عثمـان بن عفان وأوهمهم، إنها رأس محمد النفس الزكية، وبذلك خمدت الاضطرابات والفتن ومـا كان متوقعا من الخراسانيـين ضد العباسيين؛ لأنه لو فـرض وعمت الثورات فى البلدان التى كان فيها أنصار كثـيرون للعلويين فى وقت واحد، ولو أن محمدا النفس الزكية آخر ظهوره حتى يتمكن أخوه إبراهيم من تدبير أموره فى العراق وظهرا معا فى وقت واحـد، لارتبك المنصور، ولم تكن لجيوشه القدرة على مجابهة جهات متعددة فى وقت واحد ولتغير وجه التاريخ.

بناء ميناء بغداد:

اطمأن أبو جعفر المنصور بعد القضـاء على معارضيه وإخماد الفتن والثورات واستـقرت له الأمور فى الدولة العبـاسية، فكان لزامـا عليه أن يتجه إلى العـمران الداخلى، وفكر فى إقامة حاضرة جديدة لخلفاء بنى العباس.

والحقيقة فكرة إقـامة حاضرة للدولة العباسية كـانت موجودة عند خلفاء بنى العباس منذ اللحظات الأولى لقيام دولتـهم، ولكن الظروف السياسية التى أحاطت بهم لم تمكنهم من ذلك، ومع هذا فـقد بنى أبو العباس السـفاح (الهاشمـية) التى عرفت باسم هاشمية الأنبار، على الضفة الـشرقية لنهر الفرات، فى مكان لا يبعد أكثر مـن عشرة فراسخ (حـوالى ٥٦كم) عن الموضع الذى اختاره المنصور لإقـامة (بغداد) عليه. وكـان السبب فى بناء الهاشمـية أن السفاح كره المقـام فى قصر ابن هبيـرة ومدينته لأن الناس كانوا يرددون اسم مـنشئها وهو من الأمـويين أعداء بنى العباس.

ولما تولى أبو جـعفر المنصـور الخلافـة بنى هاشمـية ثانيـة شمالى الـكوفة. وأصبح هناك هاشميتـان وظل المنصور مقيما بهاشميتـه حتى قامت حركة الراوندية

فكرة الإقامة فيها، وبدأ يفكر فى تنفيذ الفكرة القديمة فيها، وبدأ يفكر فى تنفيذ الفكرة القديمة وهى إنشاء حاضرة جديدة للدولة العباسية.

وقد اختلف المؤرخين فى تحديد العوامل التى دفعت أبا جعفر فى بناء بغداد، ويمكن لنا القول أن هذه العوامل تنحصر فى ثلاثة عوامل هى:

أولا: رغبة أبى جعفر فى إقامة عاصمة جديدة تليق بدولة بنى العباس، تنفيذا لسياسة شيوخ الدعوة العباسية وأسرة البيت العباسى نفسه فى المقدمة هذه العاصمة الجديدة، لتكون رمزا لمجدهم، وإشارة إلى أعمالهم، وتمشيا مع من سبقوهم من حكام فى إقامة مدن عربية إسلامية مثل الكوفة والبصرة وغيرها. فهم لم يتخذوا دمشق لأنها عاصمة الأمويين، ومركز العصبية العربية فى الشام التى لم يستند إليها العباسيون فى تشييد دولتهم، ويرى بعض المؤرخون أن الضرورة السياسية وليست الحاجة لأن المنصور بعد مضى قرابة عشر سنوات من حكمه شعر بأن كيانه الشخصى وكيان العباسيين غير مرتكنين إلى أساس قويم يتمثل فى مدينة حصينة تحميهم، خاصة وأن العباسيين لم يطمئنوا إلى الاستقرار فى مدن العراق المعروفة وهى الحيرة والأنبار، ثم أن البصرة فى مكان بعيد غير متوسط ثم أن العباسيين لم يشعروا بالأمن والاطمئنان، وهم بين أكثر رعاياهم إخلاصا لهم.

ثانيا: كانت الكوفة مركز الشيعة العلويين وحصنهم، وكان موقف أهلها واضحا فى اختيار على بن أبى طالب للخلافة بعد مقتل عثمان رضى الله عنه لدرجة أن عليا جعلها مقره للخلافة، ويرى بعض المؤرخين أن سبب تشيع أهل العراق عامة، وأهل الكوفة خاصة راجع إلى زواج الحسين بن على بإحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية، فنظروا إليه باعتباره وريثا شرعيا لهذه الإمبراطورية التى ظنوا أن فى دورهم إحياءها عن طريق هذا التشيع لأبناء على بن أبى طالب رضى الله عنه. ولما قامت دعوة بنى العباس أيدها هؤلاء العلويون ظنا منهم أنها للعلويين، فلما انفرد العباسيون بها أخذ أهالى الكوفة يحقدون عليهم ويكيدون لهم فى الخفاء، وأصبحت الكوفة معسكر القبائل العربية النازحة إليها والتى لم تفتر عن إثارة الفتن والقلاقل، حتى أصبح المنصور لا يأمن على نفسه لمجاورته أهل هذه المدينة، الذين لعبوا دورا كبيرا فى إفساد جنوده عليه.

ثالثا: يحاول بعض المؤرخين المحدثين إرجاع سبب بناء بغداد إلى خوف المنصور من أتباع أبى مسلم الخراسانى بعد أن قتله، فلجا إلى بناء بغداد وتحصينها لتكون حماية له وللعباسيين أمام هجماتهم أو ثوراتهم المحتملة الوقوع، ونحن لا ننفى هذا الاستنتاج، وان كنا نضيف إليه خوف المنصور من أهالى الكوفة نفسها وحركة الرواندية التى أحاطت به فى هاشميته وكادت تفتك به مما سبب له عدم الاطمئنان على حياته وحياة أسرته، إلى جانب ذلك عدم ملائمة مناخ الكوفة للحياة، وانتشار مرض الطاعون بها وأخيرا أتباع السياسة التقليدية لولاة المسلمين من تأسيس قاعدة لملكهم تشتمل على قصورهم ودواوين حكومتهم، وثكنات جيوشهم حتى يكون الوالى أو الخليفة بمعزل عن طبقة العامة.

ويصف لنا الطبرى وغيره من المؤرخين أن المنصور خرج بنفسه فى حاشية يرتاد موضعا يتخذه مسكنا له ولجنده، ويبتنى فيه مدينه، فا نحدر إلى جرجرايا، ثم توجه إلى موضع بغداد ثم إلى الموصل ثم عاد إلى موضع بغداد، لأنه استطاب هواءه، ووجد أن المؤن تجلب إليه فى البر والبحر (النهر)، وقال أن هذا موضع عسكر صالح بعد أن أقام فيه يوما وليلة ثم أمر بتخطيط المدينة، بعد أن استشار دهقان قرية مجاورة، وصاحب دير، وبطريق وغيرهم، فبينوا له حصانة الموقع وأهميته الاستراتيجية، حيث قال بعضهم: وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل فى نهر دجلة، وأنت بين انهار لا يصل إليك عدوك وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من الشرق والغرب إلا احتاج للعبور، وأنت متوسط البصرة، وواسط والكوفة والموصل والسودا كله، وأنت قريب من البر والبحر والجبل.

أشاد المستشرقون بالمنصور لتوفيقة فى اختيار المكان الذى بنى فوقه بغداد، لأنه كان موقعا إستراتيجيا حصينا، ومركزا اقتصاديا وتجاريا بارزا. إلى جانب كونه مكانا بتوسط مراكز الحضارات القديمة مثل البابلية والأشورية واليونانية والفارسية ولأن العمران سرعان ما انتشر فى المناطق التى تحيط بالمدينة التى بناها المنصور (بغداد) ويعطينا علماء الآثار وصفا دقيقا لمدينة بغداد التى أراها المنصور دائرية الشكل، حتى لا تكون على شكل المدن الإسلامية التى بنيت قبلها، لأن هذه المدن

كانت على شكل المستطيل أو المربع، وكان قصره والجامع مركزا لهذه الدائرة التى بلغ قطرها ٢٢٠٠ ذراعا ويحيط بالمدينة سوران، أحدهما خارجى، والآخر داخلى، وأن تكون الأبراج ومراكز الحراسة على السور الخارجى وأن يكون بينهما خندق مملوء بالمياه، وأن للمدينة أربعة أبواب باب فى اتجاه خراسان، وباب فى اتجاه البصرة، وباب فى اتجاه الكوفة، وباب فى اتجاه الشام (راجع الرسم التخطيطى).

تخطيط مدينة بغداد

وهذا التخطيط يوحى بأن أبا جعفر المنصور كانت له دراية جيد بهندسة المعمار، ويرى البعض أن هذا التخطيط متأثر بالعمارة الساسانية ولكن العرب أضفوا عليه شيئا من طابعهم.

وفيما يختص بمعنى لفظ (بغداد) فله عدة تأويلات، فقيل أنه لفظ فارسى مركب من (داد) بمعنى رجل، و (باغ) بمعنى بستان، فيكون المعنى (بستان رجل)، وقيل أن (باغ) اسم إله قديم، و (داد) بمعنى (هبة أو عطية) فيكون المعنى (هبة الإله)، وقد سميت بعدة مسميات منها (مدينة المنصور)، والمدينة المدورة، والزوراء، لأن قبله مسجدها كانت منحرفة قليلا نحو الغرب، وقيل سميت بالزوراء، لانحراف نهر دجلة عند مروره بها، كما سمى الجانب الشرقى من هذا النهر بالروحاء لانبساط مجرى النهر عنده، وكذلك سميت مدينة السلام أو دار السلام تشبيها لها بالجنة، ومع كل هذه المسميات فقد ظل اسم بغداد هو الأشهر، وهو المتداول وغلب على الأسماء الأخرى النسيان.

استغرق بناء المدينة أربعة أعوام تقريبا من سنة ١٤٥ إلى سنة ١٤٩هـ (سنة ٧٦٣ - ٧٦٧م) بعد أن أحضر الخليفة المنصور جمعا من المهندسين ومن لهم خبرة فى مجال تشييد المدن وتقسيم الأراضى، كما كتب إلى ولاته فى البلدان ليبعثوا إليه البنائين وأهل الحرف المختلفة لتشييد المدينة، فتجمع عنده أعداد وفيرة جدا، ويروى لنا المسعودى أنه كان يعمل فى بنائها كل يوم ألف عامل، وأن نفقاتها بلغت ثمانية عشر مليونا من الدينارات. ويأخذ بعض المؤرخين العرب والمستشرقين بهذا الرأى ويرجحونه، بينما يرى البعض الآخر أن هذه المبالغ ضخمة ومبالغ فيها ويستندون على رخص الأسعار والرخاء الاقتصادى الذى كان سائدا فى هذه الفترة الزمنية.

فكر المنصور فى استعمال انقاض قصر كسرى الأبيض بمدينة المدائن، فاستشار خالد بن برمك فى ذلك، فنصحه بالعدول عن هذا التفكير، لأن بقاء هذا القصر يدل على عظمة المسلمين، الذين فتحوا هذه المدن بفعل الحماس الدينى ولم يأخذ المنصور بنصيحته ظنا منه أن ابن برمك ما زال على تعصبه للفرس فأمر باستعمال أنقاض القصر فى بناء بغداد، ولكن تكاليف نقل هذه الأنقاض كان مكلفا فتوقف المنصور عن استعمالها.

ويبدو أن عـادة بعض ولاة المسلمين وحكامـهم كانوا يأنسـون إلى استـشارة منجميهم وقراءة الطالع عند بناء المدن، فقـد استشار المنصور ثلاثا من المنجمين عن طالع هذا البناء، فقالوا له ما سره ومن ضـمن ما قالوا له: «. . . أنه لا يموت بها الخليفة أبدا حتف أنفه» فتبسم وقال: الحمد لله على ذلك، هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وقد صـادف الحظ هذا المنجم حيث صدقت نبوءته فلم يمت أحد الخلفاء العباسيين داخل مدينة بغداد.

المراجع التاريخيـة تعطينا وصفا شيـقا لمدينة بغداد بعد تمام بنائهـا، فقد بنى المنصور قنوات للميـاه تحت المدينة، كما غرس بها الأشـجار والبساتين لتجـميلها، وزين قصره الذى عـرف بالقصر الذهبى، وجـعل له قبة خضراء، وبأعـلاها أقيم تمثال فارس متحرك، بيده رمح تحركه الرياح فيعرف اتجاهها، وهناك أسطورة تقول: أن هذا الفارس كان يتـحرك ليبين اتجاه المكان القـادم منه العدو فى حالة مهاجـمته لبغداد، وقد سمى القصر كذلك باسم القـصر الأخضر نسبة إلى هذه القبة ثم بنى المنصور قصرا آخـر جعله خارج باب خراسان وسماه قـصر الخلد. وكانت أسواق المدينة فى بادئ الأمـر مقـامة على جـوانب الطرق الأربعة المتـصلة بأبواب المدينة، ولكن رسل الروم عابوا على هذا الوضع، لاختلاط الناس بالقادمين من الأمصار، فأمر المنصور بنقل هذه الأسواق إلى جنوب المدينة، فى الموضع المعروف حاليا باسم الكرخ وجعل كل حرفة مكانا مـخصصا لها كما أقام فى هذا الحى الجـديد مسجدا حتى لا يدخل أهلهـا إلى داخل بغداد، وبعض الروايات التاريخيـة تذكر أن بغداد كانت مدينة خاصة للخليفة العبـاسى وأهله وحاشيته وخواصه وجنوده، ويستدلون على ذلك بعد السماح لأحد بالدخول إليها وهو راكب دابته، فالناس يترجلون عند أبوابهـا ولكن بمرور الوقت أصـبـحت مـدينة عـامـة فنمت وازداد عـدد سكانهـا بالتدريج، حتى وصل فى عصر الرشيد حـوالى مليون نسمة وهو عدد ضخم جدا بالنسبة لتعداد السكان فى هذه الحقبة الزمنية.

كذلك أمـر المنصور ببـناء رصافة بغـداد (أو بغداد الشـرقيـة) لتكون ثكنات للجنود، وأحاطها بسور، وحفر حولها خندقا، وجعل فيـها ميدانا فسيحا ومسجدا وبستـانا وأجرى الماء فـيها، ولكنهـا لم تنم إلى فى عهـد خلافة ابنـه المهدى سنة

١٥٩هـ، وسرعان ما انتشر فيها العمران وأخذت فى النمو والاتساع، ويذكر اليعقوبى أن عدد دروبها وسككها بلغ أربعة آلاف، وخمسة عشر ألف مسجد وخمسة آلاف حمام ويبدو لى أن المبالغة واضحة فى هذه الأعداد.

أصبحت بغداد مدينة عالمية ليست قاصرة على العرب والمسلمين، فقد كثرت فيها طوائف أهل الذمة من نصارى ويهود، وقد استغل هؤلاء بالأعمال المالية (الصرافة) ومحلات بيع المشروبات، كما ظهر منصب المحتسب فى بغداد سنة ١٥٧هـ - ٧٧٤م، وكانت مهمته الإشراف على الأسواق وما بها من تجارات وصناعات.

من الأعمال الهامة للمنصور كذلك أنه وسع المسجد الحرام سنة ١٣٩هـ/ ٧٥٦م، ويعتبر أول من فرش أرض بئر زمزم بالرخام، وأقام عليه الشباك. كذلك أحاط كلا من مدينتى الكوفة والبصرة بسور سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م، ربما ليجعلها على نمط بغداد، وقد بلغت هاتان المدينتان درجة عظيمة من النمو والتقدم فى عهد الخلفاء العباسيين. كما رمم بعض المبانى والقصور الفارسية مثل القصر الأبيض.

ومن المؤسف حقا أن التاريخ لم يحفظ لنا شيئا من المنشآت المعمارية التى شيدها المنصور وخلفاؤه من العباسيين، على عكس المنشآت المعمارية التى بناها خلفاء بنى أمية فقد حفظها التاريخ لنا لتكون شاهدا على عظمة الدولة العربية الإسلامية فى عهدهم. ويرجع بعض المؤرخين وعلماء الآثار سبب اندثار آثار العباسيين إلى أنها بنيت من (اللبن) وتعرضت للذوبان بسبب ما أصابها من مياه الفيضانات فى دجلة والفرات، كما شاركت بعض الزلازل التى حدثت فى العراق فى تدمير هذه المنشآت، كما كان للفتن والثورات التى اجتاحت بغداد فى العصر العباسى الأول أثرها فى اندثار هذه الآثار العظيمة.

موقف المنصور من الدولة الأموية فى الأندلس:

حقيقة أن أبا جعفر المنصور قضى على كل خصوم الدولة العباسية فى المشرق الإسلامى، ولكن كان هناك خصم خطير وعنيد يتمثل فى وجود دولة أموية

بالأندلس قامت سنة ١٣٨، على أيدى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، المعروف باسم عبد الرحمن الداخل.

كانت دولة الأمويين فى الأندلس مستقلة عن الدولة العباسية سياسيا فقط، لأنها كانت تابعة للخلافة العباسية من الناحية الروحية، فقد ظل خلفاء الأمويين فى الأندلس فى تبعيتهم للخلافة العباسية فى بغداد يدعون لهم على المنابر، ويستمدون نفوذهم الدينى منهم منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل حتى عهد عبد الرحمن الثالث الذى أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦هـ/ سنة ٩٢٨م وتلقب بالخليفة الناصر، فأصبح الدعاء يوجه له على جميع المنابر بالأندلس وبذلك استقلت الدولة الأموية فى الأندلس وسياسيا وروحيا عن الخلافة العباسية.

وإذا تساءلنا كيف ينتسب الأمويين فى الأندلس إلى العباسيين وهم ألد أعدائهم؟ فجوابنا على ذلك يرجع إلى أصل نظرية الخلافة عند أهل السنة، فالخلافة ينبغى أن تكون واحدة، والخروج عليها عصيان دينى، والخليفة حامى الحرمين الشريفين، لهذه الأسباب كان على الدولة الأموية بالأندلس أن تكون تابعة للخلافة العباسية من الجوانب الروحية رغم ما بينهما من عداوة شديدة، قم أن الأمويين ينتمون إلى مذهب أهل السنة.

الظروف السياسية فى العالم الإسلامى حتمت الخروج على أصل نظرية الخلافة، فعندما قامت فى شمال أفريقية خلافة شيعية هى (الخلافة الفاطمية) التى أصبحت تهدد كان الدولة الأموية فى الأندلس، أقدم عبد الرحمن الثالث على إقامة خلافة أموية فى الأندلس لكى يقاوم نفوذ الخلافة الفاطمية القريبة منه وبذلك أصبح العالم الإسلامى يضم خلافة عباسية، وخلافة فاطمية، وخلافة أموية.

كان من الطبيعى إلا يقبل المنصور بوجود دولة أموية فعزم على القضاء على عبد الرحمن الداخل ودولته فى الأندلس، ففى سنة ١٤٦هـ/ سنة ٧٦٣م أرسل المنصور إلى الأندلس زعيما عربيا اسمه العلاء بن مغيث الجذامى وطلب منه القيام بثورة والقضاء على عبد الرحمن ووعده إمارة الأندلس أن هو نجح فى ثورته.

دخل العلاء الأندلس وأخذ يدعو سرا لأبى جعفر المنصور وتبعه عدد كبير خاصة من اليمنية التى كانت تكره عبد الرحمن بن معاوية لميله إلى المضرية، وقام

العلاء بثورة فى مـدينة باجه (فى جنوب البرتغال الحالية) واسـتطاع أن يحرز نصرا ظاهرا فى أول الأمر ولكن شجاعـة عبد الرحمن وعبقريتـه الحربية مكنته من إنزال هزيمة مـرة بالثوار فى مدينة قرمـونه وقطع رأس العلاء وحنطها وأرسلهـا سرا مع أحد أتباعه المخلصين، حيث وضعهـا أمام قصر المنصور، فلما حملت إلى المنصور انزعج بشدة وقال «الحمد لله الذى جعل بيننا وبين عبد الرحمن بحرا» وآثر مهادنته وعدم تحريك أى ثورة ضده. وكان المنصور على رغم عدائه لعبد الرحمن الداخل، يشيد بشجاعته، ويعترف بقدرته القيادية، ولذلك أطلق عليه صقر قريش.

فتن الخوارج والقضاء عليها:

من العقـبات التى اعتـرضت الدولة العباسـية فى أول عهـدها ظهور بعض الخوارج فى جنوب شرقى الجزيرة العربية فقد عـاد شيبان بن عبد العزيز وكنيته أبو الدلفاء إلى الظهور فى عـمان، وآثار المتاعب للخليفة المنصور فـبعث إليه خازم بن خزيمة بجنود من أهل خراسان فقضى على حـركته، كذلك أخضع المنصور منطقة البحرين التى كانت تعج بالخوارج، وجعل البصرة مركزا أماميا لمحاربتهم.

كما ظهرت مجموعة أخرى من الخوارج فى بلاد الجزيرة العربية سنة ١٣٨هـ بقيادة ملبد بن حرملة الشيبانى، فـأرسل المنصور إليه حميد بن قحطبة، ولكن ابن قحطبة، لم يتمكن من هزيمته لشدة بأسـه وعناده وقوته، فعرض عليه ابن قحطبة مائة ألف درهم ليكف عن القتـال، فأرسل المنصور خازم بن خزيمـة، فتمكن من هزيمة هذا الخارجى وقتله مع كثير من أتباعه.

وفى سنة ١٤٨هـ ظهـر رجل من الخوارج اسـمه حسـان فى الموصل، وأراد المنصور أن بفـتك بأهل الموصل جمـيعا، ولكن الإمـام أبا حنيفة النعـمان رده عن رأيه، فتخلى المنصور عن فكرته.

ولم يقتصـر ظهور الخوارج على المناطق التى ذكرناها فى العـراق وفى عمان بل تعداه إلى بلاد المغرب العـربى، إلى جانب بعض الولاة الذين دخلوا فى طاعة العباسيين ثم خرجوا عليهم لسـبب أو لآخر. ففى سنة ١٣٧هـ خرج عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عن طاعة المـنصور، لأنه تلقى إهانات مكتوبة من المنصور بسبب

امتناعه عن إرسال رقيق من البربر فحرض المنصور عليه أخاه إلياس بن حبيب فقتله.

وفى سنة ١٤٢هـ/ سنة ٧٥٩م أرسل المنصور جملة قومية بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعى - عامله على مصر - ضد الخوارج الأباضية فى المغرب، وانتهت هذه الحملة لهزيمة الخوارج فى طرابلس الغرب سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م.

وفى سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م عاودت الخوارج الأباضية للظهور فى القيروان، فذهب المنصور بنفسه إلى الشام وجند خمسين ألفا من المرتزقة، ودفع ٦٣ مليون درهم فى تجهيزهم، وضمهم إلى جيش مصر بقيادة يزيد بن حاتم الذى أباد الأباضية فى القيروان، وضمهما إلى حكمه فى ربيع الأول سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م.

حروب المنصور مع الإمبراطورية البيزنطية:

انتهزت الدولة البيزنطية فرصة الأوضاع فى المشرق وخاصة فى خراسان، بسبب مقتل أبى مسلم الخراسانى، وهاجم الإمبراطور قسطنطين الخامس مدينة ملطية فى الشام ودخلها عنوة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م، وكانت فى يد المسلمين منذ أن فتحها معاوية على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وكانت ملطية من أحسن ثغور المسلمين فى هذه النواحى مما مكن الإمبراطور قسطنطين من الاستيلاء على عدة ثغور أخرى.

أرسل المنصور أخاه العباس بن محمد، ومعه عمه صالح بن على ومجموعة من القواد فى أربعين ألف مقاتل العباس من استعادة ملطية فى العام التالى سنة ١٣٩هـ/ ٧٥٦م فأمر المنصور بتحصينها وإعادة ترميمها، كما حصن الثغور القريبة منها.

فكر المنصور فى غزو الروم فى عقر دارهم، ولكنه قبل أن يقدم على هذا العمل جدد نشاط الأربطة (جمع رباط) فشجع الخراسانيين على الجهاد والانضمام إلى إخوانهم فى هذه الأربطة وخصص لهم الأرزاق، وبنى لهم البيوت والأصطبلات ووفر لهم الأسلحة وأقطعهم المزارع، كما شجع الجنود المرتزقة على الانضمام لجيوشه، واستنفذ أسرى المسلمين من الروم فأحيا ما كان معروفا فى عهد

الراشدين وعمر بن عبد العزيز باسم (الفداء)، فلما تمت له هذه الأعمال كلها أرسل الصوائف والشواتى لغزو القسطنطينية نفسها، ومن أشهر قواد الصوائف مالك بن عبد الله الخثعمى الذى لقب بملك الصوائف، وصالح بن على وأخوه عيسى وهما عما المنصور. . .

وهكذا تمكن المنصور فى عصر خلافته الذى امتد اثنتين وعشرين سنة من القضاء على كل الخارجين عليه، وعلى الدولة العباسية، فأرسى أركان ملكه ومكن للخلفاء العباسيين من بعده، ولهذا اعتبره المؤرخون أعظم خلفائهم على الإطلاق.

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد:

استقرت أمور الدولة كلها بين يدى الخليفة المنصور بعد أن استعمل ولى عهده عيسى بن موسى فى القضاء على العلويين فى الحجاز والعراق، وفى إقناع أبى مسلم الخراسانى بالحضور إلى الخليفة ليقدم اعتذاره، ويعلن والولاء والطاعة له، فقتله المنصور وربما بدأت الجفوة بين عيسى والمنصور بسبب مقتل أبى مسلم، وشعور عيسى بأن الخليفة المنصور خدعه واستخدمه طعما لإحضار خصمه عنده، فتدخل عند المنصور لكى يبقى على حياة أبى مسلم، ولكنه رفض ذلك وأخذ المنصور يمهد الأمور ليجعل ولده محمدا وليا لعهده بدلا من عيسى بن موسى فعمد إلى إظهار ولده أمام الناس ولقبه بالمهدى كما أسند إليه بعض الأمور الهامة فى الدولة ليكسبه الخبرة، ويجمع قلوب الناس حوله فتكون له شعبية تسانده فبعث به إلى خراسان، مركز نجاح الدعوة العباسية، وأهم الولايات بها ليخفف من ثورتهم النفسية بسبب مقتل أبى مسلم، فأخذ ينقل منهم جنودًا كثيرة، ويسكنهم مدينة الرصافة (رصافة بغداد) ليألفوا حياة رغدة أعدها لهم المنصور فيتألفهم بذلك ويصبحون جنودا لولده محمد المهدى، وينجح المنصور فى سياسته إلى حد كبير، وأخذت قلوب الناس وأنظارهم تتجه إلى ولده محمد المهدى ليكون ولى عهده.

طلب المنصور من عيسى بن موسى أن يتنازل لابنه محمد عن ولاية العهد فرفض عيسى ذلك وقال: «يا أمير المؤمنين، كيف أصنع بالإيمان التى فى رقبتى، وفى رقاب الناس بالعتاق والطلاق والحج والصدقة؟ ليس إلى الخلع سبيل» فتغير المنصور عليه، وأصبح يقدم عليه فى مجالسة ابنه محمد المهدى، ويتعمد الحط من

شأنه فيجلسه فى أماكن بعيدة منه ويوعز لبعض خدمة المخلصين يذر التراب فوق رأسه، وهو مقبل إلى المنصور فيدخل عليه مقربا فإذا سأله المنصور عن مصدر التراب فوق رأسه يلوذ بالصمت ولا يشكو، ثم ضيق عليه الخناق بشكل أكثر فعزله عن الكوفة بعدما وليها أكثر من ثلاث عشرة سنة، كما دبر له مكيدة حيث دفع إليه عمه عبد الله وأمره بقتله، وكان غرض المنصور أن يقتص من عيسى بالقتل بعد ذلك، فتنبه عيسى لما دبره له، فلم ينفذ ما أمره به، وأخيراً لجأ إلى الطريقة المألوفة عند الأمويين فسقاه ما يتلف صحته (شرابا مسموما). وهدده بقتل ولده أن لم يخلع نفسه.

صمد عيسى أمام كل هذه الإهانات وتمسك ببيعته وبيعة الناس له، فدفع المنصور الجند الخراسانية الذين أحضرهم المهدى وأغراهم بشتم عيسى وإهانته، فلما اشتكى عيسى للمنصور قال له: أنى والله أخافهم عليك وعلى نفسى، فقد أشربت قلوبهم حب ذلك الفتى، يعنى المهدى، فلو قدمته بين يديك! عندئذ خلع عيسى نفسه وبايع المهدى، ويذكر الطبرى (أن قواد الجند أجبروه على هذا التنازل، فأرسل المنصور إليه خالد بن برمك (كاتبه الخاص) ومعه ثلاثون من شيوخ بنى العباس، وأخذوا توقيعه على تنازله). ثم حضر عيسى مجلس المنصور، وفيه وجوه الإشراف والقادة فشهد على نفسه بالخلع وقدم محمد المهدى، وبايعه، وفى مقابل ذلك أعطاه المنصور مبلغا كبيرا من المال كتعويض له، قدره البعض بعشرة ملايين درهم واختصره البعض الآخر إلى عشرين ألف درهم، ونحن نرجح القول الأخير لما شهر عن المنصور بالحرص الشديد فى المسائل المالية.

صفات المنصور وأخلاقه:

كان المنصور أسمر اللون، نحيفا طويلا خفيف العارضين أعظم خلفاء بنى العباس شدة وبأسا ويقظة، وحزما وصلاحا واهتماما بمصالح رعيته، ولا غرو أن اعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، شأنه فى ذلك شأن عبد الملك بن مروان الأموى، وكان أعظم بنى العباس هيبة وشجاعة ورأيا، وكان يميل إلى الجد، تاركا اللهو، جيد المشاركة فى العلم والأدب متفقها ولكنه كان محبا لجمع المال، حريص النفقة منه، ولذلك سمى الداونيقى، كما كان محبا للنظام، فكان

يجلس صدر النهـار للنظر فى أمور الدولة ويجلس مع أهله بعد صـلاة العصر ثم ينظر فيما يرد عليـه من كتب بعد صلاة العشاء، وكان يشـاور وزيره وأهل خاصته فى بعض الأمور، فـإذا مضى ثلث الليل الأول انصرف الحـاضرون عنه وآوى إلى فراشه لـينام ثلث الليل، ثم يقوم الثلث الأخيـر يتعبد فى مـحرابه ويصلى بالناس الفجر.

سمع المنصور ذات ليلة جلبة فى داره، فذهب ليرى مصدرها، فوجد خادما يجلس بين الجوارى ويضرب لهن بالطنبور، وهن يضحكن، فمشى على مهل حتى أشرف عليهن، فلما رأيـناه تفرقن فأمر المنصور خادمه الخـاص (حماد) بأن يضرب رأس الخادم بالطنبـور، ففعل حتى أنكسـر الطنبور، فأمر المنصـور يطرد الخادم من قصره.

بلغه أن عامـله على همذان ظلم رجلا من رعيـته، وحبسه، واسـتولى منه على ضيـعة بثمن بخس، فأرسل من أحـضر هذا المظلوم، واستـمع إلى شكايته، ورد عليه أرضه وعاقب عامله فعزله وولاها لهذا الرجل، ولكنه اعتذر لكبر سنه.

يروى المؤرخون الكثيـر عن حرص المنصور على المال لدرجة غيـر معهودة، من ذلك مـفاصلته لبـناء عمل له طاقـا فى قصره فـأصاب أجـره خمـسة دراهم، استكثرها المنصور وسـاومه حتى أنقصه منها درهما، وتفـاوض مع صاحب مطبخه على أن يأخذ رؤوس الذبائح والأكـارع والجلود فى مقابل أن يحضـر بدلها الحطب والتوابل. كمـا كان يلبس الخشن من الثيـاب، وربما رقع قميصه، فـلما قيل ذلك لجعفر بن محمد الصادق قال: «الحمـد لله الذى ابتلاه بفقر نفسه فى ملكه» ومهما بلغت درجة الحرص على المال عند المنصور فهذا أمر شخصى يرجع إليه، ولكن ما يؤخذ عليه حقا ميله لسـفك الدماء، إن لم يكن قد بلغ فى ذلك ما بلغه أخوه أبو العباس السفاح من قبله، وغدره بمن أعطاهم الأمان (ابن هبيرة عمه عبد الله وأبى مسلم) - وعدم تقيده بما تعهد به، ومما يؤخذ عليه فى هذا الجانب أنه كان قد تعهد لزوجته بعدم الزواج عليها، فلما ولى الخلافة واستقر بها مدة طويلة، أخذ يستفتى الفقهاء لفسخ تعهده، ولكن الحظ ساعـده بأن زوجته توفيت ومن الطبيعى أن مثل هذا العمل يعرض فقهاءه وقضاته للهرج ومخالفة ضمائرهم وعدم رعاية ذممهم.

توفى المنصور فـى اليوم السادس من ذى الحـجة سنة ١٥٨هـ/ أكـتوبر سنة ٧٧٥م، بالقرب من مـكة أثناء ذهابه لتأدية فـريضة الحج وقيل أنه مـات (بالبطن) بسبب كثرة طعامـه، وكثرة الجوار شتات (مادة هاضمة للطعام كثـرتها تسبب قرحة شديدة) التى كان يتناولـها، وقد اختلف المؤرخون فى سنة يوم وفـاته وذكروها ما بين الثالثة والستين والخامسة والستين عاما.

***

محمد المهدى

١٥٨ - ١٦٩هـ / ٧٧٧ - ٧٨٥م

أخذت له البيعة بمكة يوم وفاة أبيه المنصور، لأن الناس سبق لهم أن بايعوه بولاية العهد، وكان الشاعر أبو دلامة أول من هنأه بالخلافة وعزاه فى وفاة أبيه فى قصيدة رائعة منها:

عيناى واحدة ترى مسرورة بأميرها جذلى، وأخرى تذرف

تبكى وتضحك تارة ويسوءها ما أنكرت ويسرها ما تعرف

فيسوءها موت الخليفة محرما ويسرها أن قام هذا الأراف

وبعد أن تمت البيعة له، ألقى المهدى خطبة فى الناس عبر فيها عن حزنه الكبير لوفاة أبيه وعن عظيم المسئولية التى ألقيت على كاهله ومن ضمن ما قاله: «... لقد فارقت عظيما، وقلدت جسيما، وعند الله احتسبت أمير المؤمنين، وبه عز وجل لمستعين على خلافة المسلمين» ثم غلبه البكاء ولم يتمكن من الحديث.

تميز حكم المهدى الذى استمر أكثر من عشر سنوات بالاستقرار السياسى والاجتماعى، لأن أباه المنصور كان قد قضى على الفتن والثورات، وأورثه الملك ثابت الدعائم، شامخ البنيان، مملوء الخزائن بالوفير من الأموال، فاتجه المهدى إلى الحياة العمرانية فعكف على الفنون المعمارية وأكمل أبنية الرصافة، وشيد سورها، وأقام مسجدها، وزاد من أعمدته، كما كسا الكعبة المشرفة بالقباطى والخرز والديباج، ودهن جدرانها بالعنبر والمسك، ولكنه طمس اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد الحرام ووضع اسمه مكانه. وأمن طريق الحج فعين به الحراس وبنى الأسبلة على طريق بغداد ومكة والمدينة واليمن، كما أقامه بين بغداد وجرجان عند بحر قزوين ولم يكن موجودا بها من قبل، فسهلت الاتصالات.

وانتعشت الحياة الاقتصادية، وأصبحت بغداد فى عهده مركزا للتجارة العالمية، كما أمر بتوسعة المسجد الجامع بالموصل سنة ١٦٣هـ ونزع المقصورات فى صلاة الجماعة، واختصر فى عدد درجات المنابر وجعلها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله ﷺ.

ومن أعمـاله الداخلية أيضا أنه زاد فى الدواوين التى أنشـأها أبوه المنصور، مثل ديوان الأزمـة وجعل له فروعـا فى أنحاء دولتـه، وكانت مهـمة هذا الديوان مراجعة الحسـابات المالية (أشبه ما يكون بديوان المحاسبـة فى مصر). وشيد الدور (أشبه بالملاجئ أو المستشفيات) للمرضى، وخاصة مرضى الجذام الذى كان منتشرا فى ذلك العـصر. ونظر فى المظالم وجـعله من مراسم الدولـة ونظمهـا القضائـية الثـابتة، فـأعاد مـا كان أبوه المنصـور صادره من أمـوال إلى أصحـابها، وأخـرج المسجونين السياسيين، وعفا عنهم ورد عليهم حريتهم وكرامتهم، وخاصة العلويين الذين انتـهزوا هذه الفـرصة فعـادت الشيـعة الزيدية إلى الـظهور وأخذت تـناصر العلويين للظهور بعد أن كانوا مضطهدين.

كان المهـدى مولعا بالمـوسيقى والغناء، فكان بلاطه مـزدحما بـالمغنيين وذى المواهب الفنية، فكان إبراهيم الموصلى وسـياط وغيرهم من الزوار الدائمـين لقصر المهدى. ويعتبر إبراهيم الموصلى صاحب أحسن صوت فى الغناء فى ذلك العصر، مما جعله رائدا للفن الموسيقى فى بغداد وفارس. وربما كـان ميل المهدى للموسيقى والشعـر والغناء هو السبب فى اختـلاف آراء المؤرخين فيـه، فوصفـه البعض بأنه محب لحياة اللهو والترف والمجون التى ملأت قصر الخلافة فى عصره، ولم يعرفها المنصور ولا السـفاح من قـبله، بينما اعـتبره البـعض الآخر متـمما لـسياسـة أبيه الإصلاحية، لأن هذه المسائل لم تؤثر على هذه السياسة.

يرى بعض المؤرخـين أن الخليـفة المهـدى كان يمـيل بشكل كـبيـر إلى أهل خراسان (الموالى)، لدرجة أنه أصبح واقعا تحت نفوذهم، ويرجع ذلك إلى أن نفوذ يؤثر على سيـاسة الدولة، فقد شـغلوا مناصب الوزارة، وقيادة الجـيش، وأحاطوا بالخليفة المهدى حـتى لا يجد فرصة يخلو فيها بالعـرب. وقد بلغت درجة نفوذهم أن فوض المهدى تدبيـر شئون الدولة لأبى عبيد الـله معاوية فى سنة ١٥٨هـ/ سنة ٧٧٥م، ومن بعـده ليعـقوب بن داود بن طـهمـان فى سنة ١٦٣هـ/ سنة ٧٧٩م، وكلاهما من الموالى فاستبد كل منهما بشئون الحكم، وسيطر الموالى على الدواوين فى شرق البلاد وغربها، وقد عبر الشاعر بشار بن برد عن هذه السيطرة من جانب الموالى بقوله:

بنى أمية هبوا طال نومكم أن الخليفة يعقوب بن داود

تعدت هذه السيطرة الدواوين إلى القصر الخليفى نفسه، فقد تدخل رجال الحاشية فى شئون الحكم، فثارت الأطماع، وظهرت المؤامرات، ومن أهم الذين برزوا فى هذا التدخل الربيع بن يونس وأصله غير معلوم، فقد تدخل فى كل شىء بالدولة، وكان لنساء القصر دورهن الخطير فى هذا التدخل، فالخيزران كانت جارية من المغرب اعتقت وتزوجها المهدى سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٦م، وأنجبت منه موسى الهادى وهارون الرشيد، سيطرت الخيزران على شئون الدولة، وأصبح الأمر والنهى لها، فازدحم قصرها بالعظماء والوزراء وأصحاب الحوائج.

نتيجة لازدياد نفوذ الموالى فى عهد المهدى تسربت بعض أفكارهم العقائدية السابقة على الإسلام، مما أدى إلى ظهور الزندقة التى ارتبطت بمذهب مانى (٢١٥ - ٢٧٦م) الذى ظهر فى أواخر عهد سابور ملك الفرس (٢٤١ - ٢٧٢م) وكان مذهب مانى يقول بالخير ومعبوده (النور) وبالشر ومعبودة (الظلمة)، وتناسخ الأرواح، كذلك ارتبطت الزندقة بمذهب فردك الذى ظهر فى عهد الملك قياذ الأول سنة (٤٤٨ - ٥٣١م) حوالى قرنين من الزمان بعد مانى، وقد تابع فردك مانى فى مذهبه، وقد ألتف الكثير جدتا حول فردك واعتقدوا أنه نبى، وانتشرت الزندقة، وكثر الملحدون.

موقف المهدى من الزنادقة:

لم يكن للمهدى أن يتراخى على أمر يمس الدين من قريب، وبالتالى يمس دولته، فقد استباح الزنادقة أمورا حرمها الإسلام أبسطها شرب الخمر، إلى جانب المجون الذى انتشر فى أوساط متعددة فى الدولة العباسية، ويكتفى أن نضرب مثلا ببشار بن برد الذى كان يؤيد إبليس فى عدم سجوده لآدم عليه السلام بحجة أن النار أفضل من التراب، فأمر المهدى بضربه سبعين سوطا فمات فيها. كذلك انتشرت مبادئ الراوندية التى كان يدعو إليها هاشم بن حكيم ويعرف بالمقنع الخراسانى، وكان أنصاره يلبسون البياض فسموا المبيضة، وكانوا يعتقدون بتناسخ الأرواح، وجعلوا لأبى مسلم الخراسانى أفضلية على نبى الهدى ورسول الإسلام

ﷺ فى زعمهم. كما أسقطوا التكاليف الشرعية مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج، وأباحوا شيوع المال والنساء.

جرد المهدى حملة للقضاء على الزندقة، وأوقع بالزنادقة والملحدين وأوكل بهم صاحب الزنادقة، وخصص لهم سجنا حتى لا يفسدون عقيدة من يختلطون بهم فى السجن، خاصة وأن والده المنصور كان حذره منهم، وطلب إليه قمعهم والقضاء عليهم، ونجح المهدى إلى حد كبير فى إخماد فتنتهم، وإطفاء جذوتهم، وأصبحت محاربتهم تقليدا سار عليه من جاءوا بعد المهدى فى الدولة العباسية، إلا أن المهدى استغل محاربته للزنادقة، للتخلص من أعدائه، فلكى يتخلص من كتابه صالح بن أبى عبيد الله دعاه عنده وأمتحنه فى تلاوة القرآن فلم يتمكن من التلاوة، فطلب من أبيه - وكان وزيرا للمهدى - أن يضرب عنقه ثم عزله بعد ذلك.

موقف المهدى من الدولة البيزنطية:

ساءت العلاقات بين الخلافة العباسية فى عهد المهدى وبين الدولة البيزنطية، بسبب استمرار إغارات الصوائف والشواتى على عاصمة بيزنطية وسواحلها مما ألحق أضرارا جسيمة بممتلكاتها، فمنذ سنة ١٥٩هـ / سنة ٧٧٥م وحملات المهدى مستمرة على بيزنطية وقد أراد حاكم أزمير ميخائيل لا خانود راكون. Michael ie-Khanod Racon أن يرد على هذه الإغارات العباسية، فخرج فى ٨٠ ألف من جنوده سنة ١٦١هـ / ٧٧٨م ووصل إلى حصن (الحدث) وكان المسلمون اتخذه قاعدة لهم فى منطقة الثغور، (جبال طورس) منذ أيام معاوية، ومنه اتجه إلى حصن مرعش فى الجنوب، فأحرقوه وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين سنة ١٦٢هـ / ٧٧٩م.

أرسل المهدى حملة قوية من المتطوعين والمرتزقة بقيادة الحسن بن قحطبة، فتمكن من استعادة هذه الأماكن ورممها وبناها من جديد، وتوغل فى إغارته حتى وصل إلى قرب القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، فدمر كثيرا من المبانى، وأحرق كثيرا من المنشآت لأنه لم يلتق بجيش بيزنطى يدخل معه فى معركة.

خرج المهدى بنفسه ومعه ابنه هارون الرشيد على رأس حملة لم تشهد الدولة الإسلامية مثلها، وضرب وعسكره فى البردان سنة ١٦٣هـ / ٧٨٠م المؤدية إلى طرسوس ومكث بها شهرين فانضمت إليه حشود عظيمة من أهل خراسان، ومن هناك أرسل ابنه هارون ومعه نخبة من القواد مثل الحسن بن قحطبة، وخالد بن رماد، وولده يحيى، والربيع الحاجب، وتوغلت الحملة فى أراضى الدولة البيزنطية، وفتحوا بعض الحصون التى اندثرت بعد ذلك. ثم عاود المهدى إرسال ولده هارون بعد عامين سنة ١٦٥هـ / ٧٨٢م على رأس حملة بلغ عدد جنودها مائة ألف، فوصل إلى مشارف أنقرة على خليج البسفور، وأنزل بالروم خسائر فادحة قدرها المؤرخون بـ ٥٤ ألف قتيل وخمسة آلاف أسير، و٢٠ ألف دابة، و١٥٠ ألف من البقر والغنم، ويرجع بعض المؤرخين أن هارون لقب بالرشيد وأسندت إليه ولاية العهد بعد أخيه موسى الهادة نتيجة لهذا الانتصار العظيم.

ترتب على استمرار الحملات الإسلامية على الدولة البيزنطية، وأحرز المسلمين فى معظم الحملات على الغنائم والنصر، أن طلبت الإمبراطورة أيرين الصلح سنة ١٦٧هـ / ٨٧٣م، فوافقها هارون بشرط أن تدفع جزية سنوية سبعين ألف دينار وأن تعيد أسرى المسلمين، فأقر المهدى شروط هذه المهانة لمدة ثلاث سنوات.

المهدى والدولة الأموية فى الأندلس:

واصل المهدى سياسة أبيه المنصور التقليدية فى محاولة استرجاع الأندلس إلى حظيرة الخلافة العباسية، فدبر مؤامرة واسعة النطاق، استعان فيها بقوة سارلمان وكان أقوى ملوك أوربا فى تلك الفترة، ورحب شارلمان بهذه الدعوة، لأن مشروع غزو أسبانيا يكسبه نفوذا فى العالم المسيحى، وفى المشرق الإسلامى - خلافة العباسين - ويزيد من قدره على الإمبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية، خصوصا وأنه كان مهتما فى تلك الفترة بإعادة تكوين الإمبراطورية الرومانية فى الغرب. تزعم هذه المؤامرة رجلان:

أولهما: سليمان بن الأعرابى، وكان حاكما لمدينة سراقسطة Zaragza فى شمال أسبانيا، وتعرف بالثغر الأعلى، لأنها مركز الخطوط الدفاعية الأمامية فى

أسبانيا، وقد اشترك ابن الأعرابى فى هذه المؤامرة لخلاف بينه وبين الأمير عبد الرحمن الداخل، ولأنه كان من اليمانية المتعصبة.

ثانيهما: عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ويعرف بالصقلبى لطول قامته، ولونه ألأشقر. كانت خطوط المؤامرة أن يعبر شارلمان جبال البرانس (البرتات) بجيش كبير حتى يصل إلى سراقسطه فيسلمها ابن الأعرابى له وفى نفس الوقت يأتى ابن حبيب الفهرى بجيش كبير ,أسطول من ساحل أفريقية وينزل بمدينة مرسيه على الساحل الشرقى للأندلس، ويعلن أن المهدى الخليفة العباسى هو الحاكم الشرعى للبلاد، وأن شارلمان حليفه، وبذلك يطبقون على عبد الرحمن الداخل من كل ناحية ويقضون على حكمه. ومع أن هذه المؤامرة تبدو محكمة الخطة إلا أنها صعبة التنفيذ لأن عملية نقل جيوش كبيرة العدد من مكان لآخر فى مواعيد محددة فى تلك الفترة الزمنية كان من الصعب نجاحها.

فى سنة ١٦٠هـ / ٧٧٦م نزل ابن حبيب الفهرى بجيش من البربر على ساحل مرسيه قبل أن يصل شارلمان وجيشه فى الموعد المتفق عليه، وكانت فرصة لعبد الرحمن الداخل أن يقضى على خصومه منفردين، كل مجموعة على حدة، قبل أن يجتمعوا ضده ويصبح من الصعب مواجتهم، أسرع عبد الرحمن الداخل بجيشه إلى مدينة مرسيه وأحرق سفن ابن حبيب الفهرى، وأحدق بجيشه وحاصره فاستغاث ابن الفهرى بشريكه فى المؤامرة سليمان بن الأعرابى، ولكنه لم يتمكن من عمل شئ، وانتهى الأمر بمقتل ابن حبيب الفهرى وهزيمة جيشه هزيمة منكرة.

عبر شارلمان بجنوده البرتات واتجه إلى سراقسطة سنة ٢٦١هـ / ٧٧٧م فخرج ابن الأعرابى لاستقباله وتسليمه المدينة، التى لم يقبل أهلها هذا الوضع فثاروا بزعامة الحسين بن الأنصارى وأغلقوا أبواب المدينة، ورفضوا تسليمها إلى شارلمان، وشرع شارلمان فى محاصرة المدينة ليأخذها عنوة، ولكن الظروف لم تمهله فقد وردت إليه أخبار بأن بلاده (ألمانيا) مهددة بخطر جسيم بسبب ثورة السكسون الذين ارتدوا إلى الوثنية وهددوا بلاده، فاضطر شارلمان إلى العودة سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م قاصدا بلاده، وأخذ معه سليمان بن الأعرابى أسيرا لأنه تسبب فى فشل هذه الحملة.

فى أثناء عبـور شارلمان وجنوده جـبال البرتات من إحـدى الممرات الشرقـية وتسمى (شيروزا) chees-Roa هاجمه سكانهـا ويسمون البشكنس (يعرفـون حاليا البسكس) Vascos وانقضوا على مـؤخرة جيش شارلمان وساعدتهم قـوة عربية من أتباع سليمان بن الأعرابى، فأنزلوا بـها شربة قوية أبادت كل جنود المؤخرة، وكان يقودهـم ضابط فرنسى يـسمى رولان Rollan لعـبت الأساطيـر دورها فى وضع ملحمة شهيـرة تشيد ببطولته، وتصف المعركة وصفا أسطوريـا بعيدا كل البعد عن الناحيـة التاريخـية، وهكذا فـشلت المؤامرة التى دبرها المهـدى لضم الأندلس إلى الخلافـة العباسيـة كما فـشلت المؤامرة التى دبرها المنصور من قـبل، ويرجع سبب فشل مؤامرة المهدى إلى سـعة نطاقها بين جهات متعددة مما جعل تنفـيذها متعذرا، وإلى يقظة الأمير عبد الرحمن الداخل وعبقريته العسكرية ومهاجمة أطراف المؤامرة وهزيمتهم على كل حدة.

صفات المهدى ووفاته:

يذكر المسعودى أن المهدى كان مـحببا إلى الخاص والعام، لأنه بسط يده فى الإعطاء فأنفق كل ما تركه له أبوه المنصور، وقدره ستمائة مليون درهم (٦٠٠ ألف ألف) وأربعة عشر مليـون دينار، سوى ما جباه فى أيامه، وكـان من خلقه الحياء، والعفـو، والجود والحلم، ولم يكن يشرب النبـيذ، وكان يتأثر بالقـرآن ويميل إلى العدالة فكان يجلس بنفسـه للمظالم وبين يديه القضاة يروى مسعـود بن مساور أن عامل المهدى ظلمه واستولى على ضيـعته، فأتى صاحب المظالم وقدم شكواه على قرطاس مكتـوب على المهدى فسـأله المهدى عن ظلامتـه، وكان القاضى حـاضرا معه، فـأشار مسعود إلى عـامل المهدى وقال: "إن هذا ظلمنى فى ضيـعتى، فلما سأله القاضى، واستبانت له أن عامل المهدى غصبه ضيعته رد إليه حقوقه، وخضع عامل المهدى لحكم القضاء".

يختلف المؤرخـون فى سبب موته فـيذكر البـعض أنه كان فى صيـد، وكان يطارد ظبيا، فدخل الظبى باب خربة، فتبعه المهـدى بفرسه، ولم يتنبه لقصر فتحة هذا الباب، فانحشـر فيه، ودق ظهره، فمات لساعـته. وينكر البعض هذه الرواية ويذكرون أن جارية بقـصره وضعت سما فى طعام الجاريـة الأخرى، فأكل المهدى

منه وهو لا يعلم فمـات. ويروى آخرون أن مقتل المهدى كـان مدبرا، لأنه حدث أثناء خروج المهدى مع كبـار رجال دولته وابنه هارون متوجهـا على جرجان حيث كان ابنه الأكـبر موسى الهـادى هناك سيرغمـه على التنازل لأخيه هارون، فـبعث الهادى لأحد المقربين إليه فى حاشية القصر فخرج مع المهدى وكان له يد فى مقتله سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م.

***

موسى الهادى

١٦٩ - ١٧٠هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦م

بويع أبو محمد موسى الهادى بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه والده المهدى وكان يوم الخميس ٢٢ من المحرم سنة ١٦٩هـ/ ٤ أغسطس سنة ٧٨٥م. كان أكبر من أخيه هارون الرشيد، الذى عهد له المهدى بالخلافة بعد الهادى ويبدو أن المهدى فكر فى تقديم هارون الرشيد على أخيه الهادى عندما رأى رجاحة عقل هارون، ولشدة حبه له، وإيثاره إياه ومنزلته عند أمه الخيزران، التى كانت ذات حظوة كبيرة عند المهدى، وقد أيدها فى مطلبها هذا حاشية الخليفة نفسه مثل يحيى ين برمك (كاتب هارون) والربيع بن يونس الحاجب الذى كان بينه وبين البرامكة وفاق ووئام، ومال المهدى إلى رأيهم، فمهد إلى تنفيذ رغبة الخيرزان بأن بعث الهادى فى حملة إلى جرجان، عند بحر قزوين، على حدود الدولة العباسية تقريبا، ويقال أنه طلب فعلا من الهادى أن يخلع نفسه، ويقدم أخاه هارون عليه، ولكن القدر لم يمهل المهدى حتى توفى - كما ذكرنا - ومع هذا فنحن لا نميل إلى هذه الرواية لأن المهدى لو أراد جعل الخلافة فى ولده هارون لاتبع نفس الأسلوب الذى أتبعه مع عيسى بن موسى (ابن أخيه) ولم يكن فى حاجة إلى إرسال ولده الهادى وهو حملة إلى جرجان ثم يخرج إليه مع هارون وحاشيته ليرغموه على تقديم هارون على نفسه.

كان هارون من العقل والحكمة بحيث لم يتأخر عن بيعة أخيه الهادى وهو فى جرجان وطبرستان، فكان يأخذ من الرعية البيعة لأخيه الهادى بالخلافة ولنفسه بولاية العهد، وقد لجأ هارون إلى هذه الطريقة بتشجيع من أمه الخيزران، ويحيى ابن برمك، والربيع بن يونس الحاجب الذين دفعوا للجند عطاء سنتين مقدما حتى يعطوا بيعتهم للهادى وبذلك يضمنون ولاية العهد للرشيد.

عاد الهادى من حملته فى جرجان وطبرستان وقد أخذت البيعة له، وجلس فى دست الخلافة، فكافأ الربيع الحاجب وجعله وزيرا له، لأنه أخذ البيعة له من أهل بغداد، حيث كان موجودا بها نائبا عن المهدى عندما خرج فى سفرته التى

مات فيها، ولأنه أرسل ابنه الفضل بن الربيع ليكون فى صحبة الهادى عند دخوله بغداد.

بدأت الخيزران توسع فى نشاطها السياسى فى عهد الهادى حتى أصبحت لها الكلمة المسموعة فى الخلافة، فتوافد على دارها القضاة والوزراء وأصحاب الحاجات، فثارت الغيرة فى صدر الهادى وصاح فيها مغضبا "والله لأن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى، أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله. ما هذه المواكب التى أمامك كل يوم، أمالك من منزل يشغلك وبيت يصونك!!" وبذلك منعها من التدخل فى شئون الدولة والاشتغال بالسياسة. ثم انقلب على الربيع الحاجب وعزله من الوزارة فمات ألما من شدة خوفه من انتقام الهادى منه. أو ربما أن الهادى أمر بدس السم له ليتخلص منه، ثم استخدم ولده الفضل بن الربيع وجعله حاجبه، ولم يلبث أن عزله بعد ذلك كما حبس يحيى بن برمك وكان يريد قتله، ورمى البيت البرمكى بالزندقة ليجد الوسيلة لاستئصالهم.

ثورة العلويين بالحجاز:

هذه الاضطرابات الداخلية أثرت على مركز الخلافة العباسية، وخاصة فى أطراف الدولة فاستغل العلويين الفرصة للقيام بثورة فى الحجاز لتحقيق حلمهم الكبير، وهو استعادة الخلافة فى أبناء على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد رأينا كيف أن الخليفة المهدى أخرجهم من السجون، واسترضاهم، وأغدق عليهم العطاء حتى استردوا قوتهم فى عهد المهدى عندما تولى زعمائهم الحسين بن على بن الحسن بن الحسن على بن أبى طالب فخرج على رأس الشيعة الزيدية فى موسم الحج (ذى القعدة سنة ١٦٩هـ / ٧٨٦م) وقصدوا دار الإمارة بالمدينة المنورة، فاختفى الوالى العباسى منها وهرب خوفا على حياته، فدخل العلويين المسجد النبوى وأذنوا بأذان الشيعة، وأخذت البيعة للحسين بن على، الذى كان يستدر عطف الناس بقوله: "أنا ابن رسول الله فى حرم رسول الله وفى مسجد رسول الله وعلى منبر نبى الله، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن لم آف لكم بذلك فلا بيعة لى فى أعناقكم". ولكى يجمع الناس من حوله أعلن أنه من كان

من العبيد فهو حر، فقدم عليه عدد كبير منهم فأعتقهم، وتقرب إليهم وإلى الفقراء بالمال فكان يأخذ من بيت مال الدولة بالمدينة ويعطى هؤلاء الناس، ويبدو أن الحسين بن على الأخلاق وبذل المال، فقد أعطاه الخليفة المهدى من قبل أربعين ألف دينار وعندما ذهب إليه فى بغداد، وزعها على أهل بغداد والكوفة وخرج من العراق كما دخل إليها.

يختلف المؤرخون فى أسباب ثورة العلويين بالحجاز فيذكر البعض أن سببها المراقبة الشديدة من جانب ولاة العباسيين على العلويين للتيقن من وجودهم خوفا من قيامهم بثورة مفاجئة، ضايقتهم بشدة فالتمسوا الحرية وخرجوا على الهادى. وردنا على هذا القول أنه لا يتفق والحقيقة التاريخية لأن المهدى - كما سبق أن ذكرنا - صالحهم وأخرجهم من السجون وأغدق عليهم بالمال واسترضاهم لدرجة أن اتخذ واحدا منهم هو يعقوب بن داود وجعله وزيره. يذكر البعض أن السبب المباشر يرجع إلى أن والى المدينة العباسى ضرب الحسن بن محمد النفس الزكية (من أشراف العلويين) مع مجموعة من أصحابه لأنهم شربوا النبيذ وزاد فى تعذيبهم والسخرية منهم بأن ربط فى أعناقهم حبالا وطاف بهم فى أنحاء المدينة فغضب الحسين بن على زعيم العلويين من هذا الوالى الذى شهر بهم بهذا الأسلوب، وأنب الوالى، واحتج عليه بأن أهل العراق يجيزون شرب النبيذ من التمر (يقصد بذلك العباسيين) ونحن نستبعد أن يصدر مثل هذا القول من الحسين ابن على على ما اجتمعت عليه المراجع من عظيم خلقه وصفاته وشمائله التى ورثها عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، بل نستبعد كذلك أن يشرب العلويون نبيذ التمر فى مدينة الرسول ﷺ، وما نرجحه ونميل إليه أن الجانب السياسى ومحاولة العلويين استرجاع الخلافة توطئت فى نفوسهم أن العباسيين خدعوهم وأخذوا الخلافة منهم، وهم أحق بها، فنظروا إلى العباسيين كما كانوا ينظرون إلى الأمويين، وظلوا يكافحون ويناضلون بغية الوصول إلى حقهم فى الخلافة.

أرسل الهادى جيشًا بقيادة عمه العباس بن محمد لإخماد ثورة العلويين وعلم العلويون بأخبار هذا الجيش، فخرجوا إلى مكة المكرمة، وعند وادى فخ

على بعد ستة أميال منها، التقوا بجيش العباسيين وتم الاشتباك بين الجانبين فى ذى الحجة (وقيل فى صفر سنة ١٧٠هـ) وتقرر مصير العلويين حيث قتلت جموعها بقسوة، وحملت رؤوس مائة منهم على الأسنة كما قتل الحسين بن على نفسه، وقطعت رأسه وأرسلت إلى الهادى، فأمر بإرسالها إلى أهالى خراسان ليخيف الشيعة ويرهب الموالى أتباع أبى مسلم فى نفس الوقت، وبقيت جثث القتلى من العلويين دون أن تدفن، حتى أكلتها الطيور والسباع وعندما بلغت أنباء هذه المذبحة الرهيبة مسامع الوالى العباسى المختفى فى المدينة عاود الظهور، ونكل بالعلويين فأحرق بيوتهم وصادر أموالهم.

كانت مصيبة العلويين فى فخ كارثة مروعة، تلى مصيبتهم فى كربلاء لدرجة أن ضرب بها المثل وقالوا: "لم تكن مصيبة بعض كربلاء أشد وأفجع من فخ" وأكثر شعراء الشيعة الرثاء فى قتلاهم، وجعلوا يوم فخ ذكرى حزينة كيوم كربلاء.

تمكنت قلة قليلة من العلويين من النجاة والتخفى فى زحام الحجاج منهم رجلان هما ادريس بن عبدالله، وأخوه يحيى بن عبدالله شقيقا محمد النفس الزكية، فقد خرج ادريس بعد ذلك إلى مصر سنة ١٧٢هـ ومنها إلى بلاد المغرب الأقصى حيث التف حوله البربر، وكون دولة الادارسة واتخذ من مدينة فاس عاصمة لملكه.

أما يحيى فقد فر إلى بلاد الديلم (طبرستان) فاعتقد أهلها بأحقيته فى الإمامة وبايعوه، وعظم خطره على الدولة العباسية فى عصر هارون الرشيد، وسنعرض لهما فى حينه.

الهادى وولاية العهد:

حاول الهادى أن يخلع أخاه هارون الرشيد من ولاية العهد، ويوليها ابنه جعفر، وشجعه على ذلك رجال بلاطه وسابقه عمه المنصور مع عيسى بن موسى ولكن يحيى بن خالد بن برمك نصح له بالتريث والعدول عن هذا الأمر لصغر سن ابنه جعفر، واحتراما للعهد الذى أخذه على نفسه قبل الرشيد، وحتى لا يثور أهل البيت العباسى على ولده الصغير وينتزعون الخلافة منه لأنه لم يبلغ سن الرشد بعد، ومن ضمن ما قاله يحيى له: "يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت حملت

الناس على نكث الإيمان، ونـقض العهود، وتجرأ النـاس على مثل ذلك ولو ترك أخاك هارون على ولاية العهـد ثم بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أؤكـد فى بيعته" وكاد الهادى أن يعمل بهذه النصيحة، لولا أن حـبه لجعفر تغلب على عقله وفضله فى ولاية العهد على أخيه هارون، فكلف يحـيى بالتفاوض مع هارون ليخلع نفسه من ولاية العهـد، فقال يحـيى له: يا أمير المؤمنين! لو حـدث بك حادث الموت، وقد خلعت أخـاك وبايعت لابنك جعـفر وهو صغـير دون البلوغ، أترى خلافـته نصح؟ وهل يرضى بنو هاشم ويسلمـون الخلافة إليـه؟ فقـال الهادى: لا. فطلب يحيى منه أن يترك الأمر حتى يأتيه فى حينه، حتى لا تخرج الخلافة من بيت أبيه، ومع كل هذا لم يقنع الهادى بهذه النصائح، ورمى يحيى بن برمك فى السجن.

أخذ الهادى يضيق على أخيه هارون، ويضطهده، وأوعز إلى خاصة حاشيته بالتقلـيل من شأنه، ومال هارون إلى الـتنازل عن ولاية العهد، لـولا أن يحيى بن برمك نصحه بالعدول، وأشار عليه أن يخـرج فى رحلة صيد وأن يطيل مدة غيابه بها.

ويبدو أن الهادى شعر بالخدعة التى وقع فـيها فأخذ يلح على هارون بالعودة ولكنه كان ينتحل الأعـذار ويماطل حتى أتاه خبر وفاته وأخذ الـبيعة له - ويرجح المؤرخون أن أمه الخيزران هى التى سعت فى قتـله فدست بعض جواريها فوضعوا له السم، وقيل بل كان مريضـا فوضعوا الوسائد فوق وجهه وجلسـوا فوقها حتى مات فى ربيع الأول سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م، ولم يبلغ من العمر السادسة والعشرين ربيعا، ويبدو أن مـوت الهادى المفاجئ جعل المؤرخين يلقون تهـمة القتل على أمه الخيزران بسـبب كراهيته لها ولأخيـه؛ بل قيل أن الهادى حاول قتل أمـه فدس لها السم، ولهذا قـتلته، فأنـى أتحفظ فى الأخذ بهـذه الروايات، لأن عاطفة الأُمـومة أقوى وأشد من أى نوعية إجرامية عند المرأة، ولا يعقل مطلقا إلا فى حالات شاذة جدا ونادرة جدا - أن تقتل أم ابنها مهما بلغت به القسوة عليها. وما يجعلنى أميل إلى هذا التحفظ أن الهادى حين شعر بالموت يقترب منه فى مرضه الشديد المفاجئ طلب أمـه الخيـزران وقال لهـا: أنا هالك هذه الليلة وقـد كنت أمـرتك بأشيـاء، ونهيتك عن أخرى مما أوجـبته سياسة الملك لا مـوجبات الشرع من برك، ولم أكن

عاقا لك، بل كنت لك صائنا وبارا وصلا. ومن عجائب الدهر أن يرزق هارون بولد فى نفس اليوم الذى مات فيه الهادى، وهو اليوم الذى بويع فيه بالخلافة فقيل مات خليفة، وولى خليفة وولد خليفة.

صفات الهادى:

تصف المراجع العربية الهادى بقسوة القلب، وشراسة الأخلاق، وصعوبة المرام، وربما أن نشأته وقضاءه معظم شبابه فى الحروب والحملات كان له أثره الكبير على تشكيل أخلاقه على هذه الصورة. كان الهادى مولعا بسماع الغناء وشرب الخمر منذ صباه، وحتى بعد أن أصبح خليفة، وكان أبوه المهدى يأمر بضرب ندمائه ومغنيه حتى يقلع عن هذه العادات، ولكن دون جدوى. وكان شديد الغيرة محبا لنفسه، ظهرت غيرته واضحة فى معاملته لأمه (الخيزران)، وعن حبه لنفسه ما ترويه المراجع من أن المهدى وهب للرشيد خاتما مفيسا له قيمة جليلة فلما ولى الهادى الخلافة طلب هذا الخاتم من الرشيد ولكنه رفض ذلك. إلى جانب هذه الصفات فقد تميز الهادى بالشجاعة النادرة، وحبه للأدب والتاريخ. استأذن عليه أحد الخوارج، ولما دخل على الهادى استل سيف أحد الحراس وأراد قتل الهادى فظل الهادى رابط الجأش لا يتحرك حتى قرب الخارجى منه فصرخ وقال: اقتله! فذعر الخارجى والتفت إلى الخلف يحمى نفسه فانقض عليه الهادى وأخذ منه السيف وضربه به فقتله. وعن حبه للأدب والتاريخ فقد كان يجالس رجلا أدبيا اسمه عيسى بن دأب، وكان من أكثر أهل الحجاز علما بالأدب والتاريخ، وكان عذب اللفظ فكان يحدث الهادى عن الأمصار وعيوبها وفضائحها وميزانها... إلخ، كذلك عرف عن الهادى إسرافه فى العطاء والهبات فقد أهدى أحد الشعراء (ابن يامين البصرى) سيف عمرو بن معد يكرب المعروف بالصمصامة وكان ذا قيمة كبيرة ثم اشتراه منه بخمسين ألف درهم.

***

أعظم وأعدل خلفاء بنى العباس

"هارون الرشيد"

١٧٠ - ١٩٣هـ / ٨٧٦ - ٨٠٩م

ولى الخلافة يوم الجمعة الخامس عشرة من ربيع الأول سنة ١٧٠هـ / ١٤ سبتمبر ٨٧٦م ولم يكن عمره تجاوز الاثنين والعشرين ربيعها بعد.

اشتهر خلفاء بنى العباس وأكثرهم ذكرا فى تاريخ الدولة العباسية، كان وديع الأخلاق من السهل السيطرة عليه، ولذلك تدخلت أمه الخيزران والبرامكة فى شئون الدولة، ويمكن لنا أن نقسم فترة الحكم التى قضاها هارون الرشيد فى الخلافة إلى فترتين متميزتين:

الفترة الأولى: حيث تغلب نفوذ الخيزران (أمه) وأصبحت هى الناظرة فى الأمور وعاد سلطانها أكثر مما كانت فى أول عهد الخليفة الهادى، لأن الرشيد كان منقادا لها، وكان الوزير يحيى بن خالد البرمكى يعرض عليها الأمور، ويأمر بأمرها، واستمر نفوذها مسيطرا على الدولة إلى أن وتوفيت فى جمادى الآخرة سنة ١٧٢هـ / نوفمبر سنة ٧٨٩م.

الفترة الثانية: تميزت بغلبة النفوذ البرمكى الذى ظل حتى سنة ١٨٧هـ عندما نكب هارون الرشيد هذه الأسرة وقتل بعض أفرادها، وانفرد بالحكم بعدها حتى توفى سنة ١٩٣هـ.

بلغت الدولة الإسلامية فى عهده درجة عالية من الحضارة وزاد عمران بغداد وحضارتها، فبنيت فيها القصور الفخمة، وزادت ثورتها حتى بلغت قيمة ما يجبى من الضرائب حوالى اثنين وسبعين مليونا من الدينارات بالإضافة إلى الضريبة العينية، وأصبحت مركزا للتجارة العالمية، فكانت تأتيها تجارات الشرق الأقصى وشرق أفريقية من كل نوع عن طريق الخليج العربى كما كانت ترد إليها بضائع بلدان البحر الأبيض المتوسط عن طريق الشام ومصر، وأصبحت بغداد منارة يقصدها العلماء والأدباء وأصحاب الحرف والصناعات والفنون.

وفى عصره ارتقى فن الغناء والموسيقى نتيجة لمجهودات مغنية إبراهيم الموصلى صاحب أجمل صوت فى عصره وابنه اسحق، وكانت لهما مدرسة موسيقية غنائية لتعليم الجوارى فن الغناء والموسيقى، وضارب دفه المسمى (زلزل)، ونافخ مزماره المسمى (برسوم)، مما جعل اسم هارون الرشيد مقرونا بكتاب "ألف ليلة وليلة" الذى ترجم إلى معظم لغات العالم فأفاض على الرشيد شهرة عالمية واسعة. يذكر الخطيب البغدادى أنه اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد غيره من جد وهزل، فوزراؤه البرامكة لم ير مثلهم سخاء وسرورا، وقاضيه أبو يوسف - صاحب كتاب الخراج - وشاعره مروان بن أبى حفصة، يضارع جريرا فى عصره، وحاجبه الفضل بن الربيع كان شديد العجب بنفسه، وأكثر الناس تعظيما لها، وزوجته أم جعفر. أرغب الناس فى الخير، وأسرعهم إلى كل بر، وهى أسرع الناس فى معروف... إلخ.

ظهر فى عصره كذلك شعراء عظام مثل أبو العتاهية، والعباس بن الأحنف، ومؤرخون مرموقون مثل الواقدى، والأصمعى، كما توفى علماء أجلاء من أئمة الإسلام مثل الإمام مالك بن أنس والليث بن سعد الفقيه المصرى، وسيبويه اللغوى، وموسى الكاظم وهو الإمام السابع للشيعة الإمامية الاثنا عشرية.

تأثرت الحياة الاجتماعية فى الدولة الإسلامية، وخاصة فى بغداد بالمؤثرات الفارسية، فاحتفل الناس بالنوروز، واتخذوه عيدا شعبيا، كما أقام الخلفاء فيه احتفالا رسميا، واتخذت الأزياء النمط الفارسى، وانتشرت الأطعمة والأشربة الفارسية.

الفتن والثورات:

لم يخل عصر الرشيد من القلاقل والاضطرابات، ففى عهده ثار الصحيح الخارجى فى الموصل سنة ١٧١هـ، فأخرج الرشيد من كان ببغداد من العلويين وبعث بهم إلى المدينة، وثار الفضل الخارجى فى نصيبين سنة ١٧٦هـ، كما أثار الوليد بن طريف الشارى الشيبانى سنة ١٧٨هـ سنة ٧٩٤م، فهزم جيش الرشيد، وقتل والى نصيبين، ومنها اتجه إلى أرمينيا وأذربيجان وأنزل بهما الخراب وأشاع الفساد، ثم رجع إلى الجزيرة فى العام التالى (١٧٩هـ) وعبر نهر دجلة، ووصل

إلى حلوان، وقـويت شوكـته عندمـا كثـر أتباعـه، واتهم هارون الرشيـد بالظلم والجور، وأنه يعمل على تخليص الناس منه ومن ظلـمه هذا، ولكن الرشيد أرسل إليه يزيد بن فريد الشيبانى الذى أنزل به وباتباعه الهزيمة بعد جهد ومشقة كبيرين، كما قتل الوليد بن طريف نفسه وبعث برأسـه إلى الرشيد، كذلك خرج حمزة ابن عبـدالله الأزرق سنة ١٧٩هـ فى سـجستان كـما قامـت فتن أخرى فى خـراسان وفارس وكـرمان ولكنهما لـم تكن خطيرة مثل الوليـد الشارى. وفى سنة ١٨٠هـ اضطربت أحوال الشام بسبب تحريك العصبية القبلية بين القيسية واليمانية وقتل من الجانبين أعـدادا كثيرة، فاضطر الرشيـد أن يبعث جعفر بن يحيى البـرمكى لتهدئة القبيلـتين الكبيرتين، ونجح جـعفر فى إخماد نـار نصيبين، كمـا تمكن من سحب كميات كبيرة من أسلحة الفريقين حتى يضمن سلامة الخلافة العباسية.

وفى مصـر أثيرت الاضطرابات والقـاقل بسبب سوء حكـم ولاة العباسـيين فيهـا، وقد زاد من خطورة هذه الاضطرابات أن القيسـية واليمانية فى مـصر كانوا يشتركون فيها، ويتفقون على موعد بدئها، ولذلك تمكنوا من تعطيل إرسال الخراج إلى بغداد والمماطلة فى إرساله فى معظم سنوات عهد الرشيد، وكان الرشيد يقابل اضطرابات العرب فى مـصر بالشدة والقسـوة، ويحتجز بعض رؤسـاء العصبيـتين كرهينة عنده، ويبدو أن الرشـيد أراد تهدئة الأحوال فى مصر فـولاها وزيره جعفر البرمكى سنة ١٧٦هـ ولكنه لم يذهب إليـها وأناب عنه من يقوم بولايتهـا، فبعث الرشيد قائده، ذائع الصيت هرثمة بن أعين إلى مصر لوضع حد لهذه الاضطرابات ولكنه هو الآخر لم ينجح فاضطر الرشيد إلى أن يضمن خراج مصر أى يصبح فى نظام الالتزام.

وفى أفريقية اسـتمرت الاضطرابات فى عهد الرشيـد بانتظام لدرجة أن أحد الولاة واسمه ابن الجارود استقل بولاية أفريقية سنة ١٧٨هـ / ٧٩٥م أرسل الرشيد قائده هـرثمة بن أعين الـذى تمكن من اعتقـال ابن الجارود وبعث به إلـى بغداد، وأصـبح هرثمة واليـا على أفريقـيـة، وظل بها حـتى ١٨٣هـ / ٧٩٩م ولكنه لم يتمكن البـقاء بها لكثرة تمرد عربـها، فطلب إعفاءه من الولاية، ويبـدو أن الرشيد اضطر إلى قبول ما عرضه عليـه إبراهيم بن الأغلب، اليمنى، أحد ولاة مدنها من

تولية أفـريقيـة، وبقائها فى ذريتـه نظير أربعـين ألف دينار سنويا فكان ذلك بداية لظهور بعض الولايات المسـتقلة اسميا فى عـهد الرشيد حيث قـامت دولة الأغالبة وأن بقيت على صلة وثيـقة بالخلافـة، فقد نقش إبْراهيم بن الأغلب اسم الخليـفة على السكة، وأطلـق اسم العبـاسـيـة على حـاضـرة دولته التـى بناها فى جنوب القيروان، نسبة إلى بنى العـباس، كما شيد فيها قصرا سـماه الرصافة، على غرار رصافة بغداد، والحقـيقة أن دولة الأغالبة فى أفريقية لعـبت دورا فى تصحيح التيار المعادى للخلافة العباسية فى هذه الـنواحى، فقد حارب بقايا الخوارج الأباضية فى طرابلس وفى تاهرت حيث قامت الرسـتمية على يد عبـد الرحمن بن رستم الذى خلف أبا خطاب الأباضى.

ومن القـلاقل والاضطرابات التى هددت سـلامة الدولة فـى عهـد الرشيـد خروج يحيى بن عـبدالله بن الحسن العلوى وأخيه إدريس، وقـد سبق أن تعرضنا لهمـا فى موقـعة فخ، فقـد هرب يحيى إلى بلاد الديلم، وبايعـه أهلها بالإمـامة لاعتقادهم بأحقيته بها من العباسيين وقد قوى نفوذه فى بلاد الديلم وأصبح مصدر قلق للرشـيد الذى بعث الفـضل بن يحيى البـرمكى واليا من قـبله على جـرجان وطبـرستان والـرى، وزوده بـ ٥٠ ألف جندى لمحاربة يحـيى بن عبـدالله. ولكن الفضل البـرمكى لم يلجأ إلى الحـرب، بل لجأ إلى الحـيلة والدهاء، فأخـذ يحذر يحيى بن عبدالله حينا، ويخوفه ويهدده حـينا آخر ثم يلين معه ويرغبه ويمنيه تارة أخرى حتى مال إلى الصلح واشتراط لذلك أن يأتيه كتاب أمان بخط الرشيد نفسه، وعليه إشهاد من الفقهاء والقضاة وأكابر بنى هاشم، فوافق الرشيد على هذا المطلب وزاد عليه من عنده بعض الهدايا القيمة فـاطمأن يحيى بن عبدالله العلوى، وذهب لمقابلة الرشـيد فى صـحبة الفـضل البرمكى، واستـقبله الرشـيد بالترحـاب وأكرم وفادته، ولكن لم يلبث أن حبـسه فى داره (اعتقله) واستفتى الفـقهاء فى بعض ما بعث به من العهد (كتاب الأمان) فوافقـه البعض، واعترض البعض، ولكن الرشيد مال إلى الجانب الأول وتخلص من خـصمه وأمر بقتلـه وهو فى سجنه، وقيل فى موته روايات أخرى.

أما إدريس بن عبدالله العلوى الذى توجـه إلى المغرب الأقصى والتف البربر حوله وعلى رأسهم إسحق بن محمد زعـيم قبيلة أوربة البربرية ومن معه فكون بها

دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ، فقد رأى الرشيد أنه لا طاقة له بالدخول فى حرب معه، فلجأ إلى المكايدة والحيلة، فأوعز إلى إبراهيم بن الأغلب (الأغالبة) بأن يشنوا غاراتهم على إدريس ويحرمونه الاستقرار، وفى نفس الوقت بعث إليه برجل من عنده اسمه سليمان بن جرير الشماخ وأمره بدس السم لإدريس فوصل الشماخ إلى مدينة وليلى (عاصمة دولة الادارسة) وتظاهر بالتبروء من بنى العباس، والانضمام إلى إدريس العلوى، وأخذ يتقرب إليه ويزعم أنه يمتهن الطب، ويعرف الأدوية فأنس إدريس إليه، وقربه منه، وبذلك تمكن الشماخ من دس السم لإدريس سنة ١٧٥هـ / يونية ٧٩١م وقيل سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣م، فعين الرشيد الشماخ على بريد مصر مكافأة له على ارتكاب جريمته.

تخلص الرشيد من هذه العقبة الكؤود التى سببت له اضطرابا سياسيا وقلقا اجتماعيا على الرغم من بعد المسافة بين دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى وبين مركز الخلافة فى بغداد، ولا سيما وأن إدريس الأكبر لم يترك ذرية له، ولكنه ترك أمة تحمل فى أحشائها منه جنينا ما لبثت أن وضعته وسمته إدريس الأصغر الذى سيخلف أباه بمساعدة رجل حفظ ود أبيه له يسمى راشد كان مولى دريس الأكبر، ويبدو أن العباسيين لم يجدوا غير إشاعة الافتراءات التى أطلقوها على إدريس الأصغر فنسبوه إلى راشد وأنكروا نسبه لأبيه إدريس الأكبر، لينالوا منه ومن دولته لأنه بعيد عن النسب الهاشمى الذى يعطيه الحق فى الإمامة أو الخلافة.

وفى الأندلس:

فشل الرشيد فى القضاء على الدولة الأموية التى أعلنها الأمير عبدالرحمن الداخل، فقد بعث الرشيد بسفارة إلى شارلمان إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وارتبط معه بحلف، لأن شارلمان كان يكره الأمويين فى الأندلس لأن الدولة الأموية متاخمة لحدود دولة شارلمان ولذلك ارتبط بهذا الحلف من قبيل الحرب الباردة ضدهم، وقد تبادل السفارات مع رشيد، وأرسل كل منهما الهدايا النادرة للآخر وقد أفاضت المراجع التاريخية فى ذكر ووصف هذه الهدايا، ولكن لم ينتج عن هذه السفارات أن أضيرت الإمارة الأموية فى الأندلس، لأن الأمويين نهجوا

نفس الأسلوب وارتبطوا مع الدولة البيزنطية بحلف، وتبادلوا السفارات والهدايا مع الإمبراطور ايرين وكان سفير الأمويين إليها الشاعر الأندلسى يحيى الغزال.

وهناك من المؤرخين المحدثين من يرى عكس ذلك ويذكر أن علاقة الرشيدة بالإمارة الأموية فى الأندلس كانت تقوم على التعاون بغرض المحافظة على الأندلس المسلمة من أطماع الفرنجة المتأخمين لها، ويستدلون على ذلك بأن داود بن يزيد بن المهلب والى مصر أرسل فى سنة ١٧٤هـ / ٧٩٠م إلى هشام ابن عبد الرحمن الداخل جنودا لكى يستعين بهم فى حسم نزاع وقع بينه وبين أخوية حتى لا تضيع الأندلس، وتقع فى أيدى الفرنجة، ثم أرسل داود إلى هشام مددا آخر سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م، وقد أراد الفرنجة الانتقام من الدولة بسبب تعاونها مع هشام فجهزوا حملة إلى الإسكندرية سنة ١٨٩هـ / ٨٠٥م ولكن هذه الحملة لم تنجح مهاجمة هشام للفرنجة.

علاقة الرشيد مع بيزنطية:

اختلف علاقة الرشيد مع الدولة البيزنطية بالنسبة لما كانت عليه مع دولة شارلمان فقد كانت علاقة الرشيد مع البيزنطيين متوترة لكثرة الحملات التى قامت بها الدولة العباسية ضد بيزنطة، فقد واصل الرشيد سياسة آبائه وأجداده فى شن الحملات (الصوافى، والشواتى) فقد خرج بنفسه سنة ١٨١هـ على رأس جيش كثير العدد والعدة واجتاز منطقة الثغور بآسيا الصغرى واقتحم عدة حصون وفتحها كما بعث قائده عبد الملك ابن صالح فى نفس السنة على رأس حملة كبيرة وصلت إلى أنقرة مما نفع الإمبراطورة أيرين إلى طلب الصلح ودفع جزية للرشيد.

ولكن فى سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م أزيحت ايرين عن الحكم بواسطة انقلاب ضدها وتولى الإمبراطور نقفور أول (٨٠٢ - ٨١١م) الحكم، فنقض الهدنة التى أبرمتها ايرين وامتنع عن دفع الجزية، وأرسل إلى الرشيد كتابا شديد اللهجة يطلب إليه رد الأموال التى دفعتها أيرن ويتهمها، وفى آخر الكتاب يقول للرشيد: " . . . وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك فلما قرأ الرشيد الكتاب ظهر الغضب على وجهه وخافت حاشيته التحدث معه، فكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب

الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام، ثم خرج بجيوشه زاحفا على آسيا الصغرى فنزل على هرقلة ففتحها وغنم منها كثيرا، ودخل مع البيزنطيين فى عدة مواقع فهزمهم، وأرغم نقفور على طلب الصلح والإقرار بالجزية كما كانت على عهد ايرين، ولكن البيزنطيين نقضوا هذه المعاهدة كذلك وشنوا هجومهم على دولة الرشيد وأنزلوا هزيمة نكراء بالمسلمين فى جنوب آسيا الصغرى. واضطر الرشيد لمعاودة الكرة والخروج إليهم فى سنة ١٩٠هـ / سنة ٨٠٥م ففتح هرقلة والصفاف وملقونية وبعض المناطق الأخرى وأنزل بالبيزنطيين هزيمة مرة وأسر منهم ١٦ ألف جندى وزاد قيمة الجزية المقررة عليهم وجعلها خمسين ألف دينار.

نكبة البرامكة:

ذخرت فترة حكم الرشيد بكثير من الفتن والثورات فى المشرق والمغرب الإسلامى كما تميزت هذه الفترة بأحداث سياسية واجتماعية غير قليلة ولكن موضوع نكبة البرامكة بقى العلامة البارزة فوق الأحداث كلها. وقبل أن نتكلم عن هذه النكبة ينبغى لنا أن نلقى الضوء على أصول هذه الأسرة وتطورها فى حياة بنى العباس حتى نحيط بموضع دراساتنا عنها.

ترجع أصول هذه الأسرة إلى قبيلة الأزد العربية، ويرى البعض أنها تنسب إلى الفرس، لأن كلمة "برمك" لقب يطلق على كهنة أو سدنة معبد قديم بالقرب من بلخ (فى خراسان) وكان هذا المعبد يسمى "النوبهار" وهى كلمة هندية قديمة معناها الربيع المتجدد، ربما لأن أراضى خضراء كثيرة كانت تحيط به، كان البوذيون يحجون إلى هذا المعبد من الهند والصين وبلاد الفرس للإقامة شعائر عبادتهم البوذية فيه، وكان لهذا المعبد أوقات كثيرة للصرف منها شئونه، ولذلك كانت الأسرة التى تتولى شئون هذا المعبد على جانب كبير من الحظوة والأهمية ويبدو أن هذا المعبد ظل موجودا حتى تلاشى فى عهد معاوية بن أبى سفيان سنة ٤٢هـ / ٦٦٤م.

عاش برمك فى زمن عبد الملك بن مروان، وكان على علم بالطب والتنجيم ويقال أن البرامكة اعتنقوا الإسلام زمن الدولة الأموية بعد أن فتح المسلمون أواسط

آسيا، ويدلل المؤرخـون على ذلك بأن خالد بن برمك نشأ مسـلما لأن اسم خالد اسم عربى وقد شـارك خالد فى الدعوة لبنى العباس منذ بدايتـها، فانضم إلى أبى مسلم الخراسانى وحارب معه ضد الأمويين حتى قامت الدولة العباسية، واستوزره الخليفـة أبو العباس السـفاح بعد مـقتل أبى سلمـة الخلال (وزير آل محـمد)، ثم استوزره أبو جعفر المنصـور ويبدو أن خالدا رفض أن يتقلب الوزير لأنه شؤم على صاحبه وتمثل بقول الشاعر:

أسـواأ العـالمين حـالا لديهم مـن تسـمى بـكاتب أو وزير

ونجى خـالد بن برمـك منهـا إذ دعـوه بـعـدها بـالأمـيـر

كذلك استـعمله الخليفة المهدى فى قصـره إلى أن توفى خالد بن برمك سنة ١٦٥هـ / ٧٨١م وكان قد أنجب يحيى بن خالد البرمكى، الذى يعتبر واسطة عقد الأسرة البرمكية وأشـهر رجال فيها لما تميز به من مـهارة وإدارة عرفت عند الفرس فى ذلك الوقت. عهد المـنصور إليه بولاية أذربيجان وأرمـينية سنة ١٥٨هـ / سنة ٧٧٥م، ثم أسند إليه المهدى أمر النفقات للـجنود، ثم عهد إليه بتربية ولده هارون الرشيـد فرباه أحـسن تربية: وزوده بـنصائحـه وإرشاداته حتـى ضمن له الخـلافة وعرض نفسه للحبس والهلاك وكان هارون يناديه (يا أبى).

وعندما ولى هارون الرشيد الخلافة أصبح يحيى البرمكى كل شئ فى الدولة فقد حـفظ له هارون فضل مواقـفه معه وتربيـته له، فاستـوزره وزارة تفويض سنة ١٧٠هـ وكتب إليه:

"قلدتك أمر الرعـية، وأخرجته مـن عنقى إليك، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصـواب، واستـعـمل من رأيت وأعزل من رأيـت، وأمض الأمور على مـا ترى".

ثم دفع إليه بخاتم الخلافة. وبهذا التقليد حدد الرشيد لأول مرة عمل الوزير ومضمونه من حيث وزارة تنفيذ ووزارة تفويض.

قام يحيى بتصرف شئون الدولة على خير وجه، فقد ورث ذلك عن أجداده الذين كانت لهم كـتب قديمة على عـهد الساسـانيين فى الوزارة وأصولهـا، بينما

انصرف الرشيد إلى الاستمتاع بالحياة ومسراتها. فقد استعان يحيى فى أمور الدولة بأولاده، وكانوا على نمطه فى الذكاء والحصافة، فعهد لابنه الأكبر (الفضل)، الذى ولد قبل الرشيد بسبعة أيام وأرضعته الخيزران بلبان الرشيد، عهد إليه بولاية المشرق خراسان وطبرستان وأذربيجان وأرمينية وجهز له جيشا كل جنوده من خراسان وكان عددهم ٥٠٠ ألف، سماهم العباسية وقد شهر عن الفضل ابن يحيى أنه كان اداريا من الطراز الأول، وكان كريما كثير الهبة للشعراء مثل الأصمعى، وأبى نواس، غير أنه كان يعيبه شىء من العنف والكبرياء.

كذلك عهد يحيى لابنه جعفر بولاية الجزيرة والشام ومصر وما يليها غربا، وتمكن جعفر بذكائه ودهائه من ضبط وتصريف شئون هذه البلاد بطريقة ممتازة. وقد شهر جعفر بخفة الروح والظرف إلى جانب فصاحه وبلاغه مما جعله محببا عند الرشيد فاستبقاه إلى جواره فى بغداد.

سيطرت أسرة البرامكة على دولة الرشيد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وأصبحت دولة عباسية اسما ومظهرا، وبرمكية حقيقة ومخبرا، لدرجة أن بعض المؤرخين أطلق عليه دولة البرامكة. لأنهم لم يتركوا ناحية من نواحى الحياة الإدارية والعسكرية والمالية والعلمية والأدبية إلا وباشروها وشملوها بعطفهم، فمالت إليهم نفوس الناس، وأحبوهم، ومدحهم الشعراء الشعراء بما يمدحوا به الخلفاء مثل قول نواس فيهم:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغادى

إلى جانب ذلك خص البرامكة أنفسهم بمجالس سمر وغناء على غرار مجالس الرشيد ومن أشهر مغنياتهم (دنانير)، واسحق الموصلى، وكان البرامكة يغدقون على هؤلاء الفنانين والشعراء والعلماء الهبات والعطايا بشكل لم يسمع به من قبل فى تاريخ الدولة الإسلامية، ووصل تكريمهم لهم أنهم كانوا يحلمون إليهم هذه الهبات والعطايا بأنفسهم.

أسباب نكبة البرامكة:

يمكن لنا أن نجمل أهم أسباب هذه النكبة فى الجوانب التالية:

١ - الاستحواز على مقدرات الدولة:

استغل البرامكة ما وصلوا إليه من نفوذ وحظوه، وأخذوا يتصرفون فى شئون الدولة كما لو كانوا هم أصحابها، وأصبح الرشيد مغلول الدين، ضعيف النفوذ بالنسبة لما كانوا يوزعونه من أموال على أتباعهم وأنصارهم ومعظمهم من الفرس، لدرجة عبر الرشيد عن نفوذهم هذا بقوله: "ما عد البرامكة بنى هاشم ألا عبيدهم وأنهم هم الدولة، وأن لا نعمة لبنى العباس ألا والبرامكة أنعموا عليهم بها ثم بدأ يحد من نفوذهم فعزل محمد بن خالد البرمكى عن الحجابة سنة ٦٧٩هـ، وقلدها لرجل من العنصر العربى هو فضل بن ربيع كما نحى الفضل بن يحيى عن مسئولياته سنة ١٨٣هـ وأسندها إلى عيسى بن ماهان ثم سحب الاشراف على الحرس من جعفر بن يحيى وكلف به هرثمة بن أعين، وبدأ فى الأعراض والابتعاد عنهم تدريجيا حتى لا يشعروا بما أضمره لهم، ومن الطبيعى أن الرشيد لجأ إلى هذا الأسلوب بعدما ضاقت نفسه، وفرغ صبره وأصبح يخشى على مركزه كخليفة للمسلمين عندما أصبح الناس لا يذكرون غيرهم، ولا يقصدون إلا أبوابهم، وكان الرشيد يتغاضى فى أول الأمر عن كل ما يرد إلى مسامعه عن استئثارهم بالسلطة والنفوذ دونه، حتى أن صاحب الفخرى يروى أن بختيشوع الطبيب دخل ذات يوم على الرشيد وكان جالسا فى قصر الخلد ببغداد، وكان البرامكة يسكنون فى مواجهته على الضفة الأخرى من نهر دجلة فنظر الرشيد إليهم فرأى كثرة الخيل، وازدحام الناس على باب يحيى البرمكى، فقال لطبيبه: "جزى الله يحيى خيرا، تصدى للأمور وأراحنى من الكد، ووفر أوقاتى على اللذة". وبعد مدة من الزمن، وقد بدأ الرشيد يعرض عليهم، ويتغير عليهم دخل عليه طبيبه ونظر الرشيد صوب البرامكة فرأى مثلما رآه فى المرة السابقة فقال: "استبد يحيى بالأمور دونى، فالخلافة فى الحقيقة له وليس لى منها إلا اسمها". من جانب آخر فقد كانت أموال الدولة كلها تحت سيطرت البرامكة، ينفقون منها ببذخ وإسراف كيفما شاءوا، وكانوا يقترون على الرشيد فيما يطلبه من أموال فكان

يطلب اليسير منه فلا يصل إليه فظن إلى أن الأمر يكاد يخرج من يده فنقم على البرامكة، وعبر عن ذلك بقوله لهم: "أن ضياعكم ليس لولدى مثلها وتطيب نفسى لها" وقد أحصيت أموال يحيى وجعفر فى آخر أيامهم فبلغت عشرين مليونا.

ويروى الطبرى أن جبريل والد الطبيب بختيشوع كان عند الرشيد ذات يوم، ودخل يحيى البرمكى كعادته بدون إذن، فامتعض الرشيد، ووجه حديثه إلى جبريل الذى أنكر هذا الصنيع، وفهم يحيى وأخذ يعتذر وأبان أن أمير المؤمنين هو الذى منحه هذه الميزة من قبل وفهم يحيى أن الرشيد بدأ يتغير على البرامكة.

ومن مظاهر استبداد البرامكة بأخص أمور الدولة، وما كان لغير الرشيد أن يتصرف فيه، ما يرويه الطبرى من أن الرشيد أمر بحبس رجل اسمه يحيى بن عبدالله بن الحسن (من العلويين)، ووكل أمر حبسه إلى جعفر بن يحيى البرمكى، وذات ليلة سأل جعفر هذا الرجل عن حقيقة أمره، فقال: اتق الله فى أمرى، ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمد ﷺ فوالله ما أحدثت حدثا، ولا أويت محدثا وأخذ يبرئ نفسه فرق جعفر له وأمر بإطلاق سراحه وبعث معه يؤمنه فى طريقه وبلغ الخبر إلى الفضل بن الربيع وتأكد منه فنقله الرشيد، وتظاهر الرشيد أمام ابن الربيع بأن ذلك بناء على أمره، ثم دعا جعفر البرمكى على غداء وأخذ يحادثه حتى انتهيا من الطعام، وعندئذ فاجأ الرشيد جعفر البرمكى بالسؤال عن يحيى العلوى، فأجاب: بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال. فقال الرشيد: بحياتى! ووقع فى خاطر جعفر أن الرشيد علم بما أحدثه فقال: لا وحياتك يا سيدى، ولكن أطلقته، وعلمت أنه لا حياة به، ولا مكروه عنده، فتظاهر الرشيد بالرضا على ما فعل، وأخذ يتتبع جعفر البرمكى ببصره عند خروجه وتوعده قائلا: قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة ألم أقتلك!

٢ - الصراع بين الفرس والعراب:

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، وكان من الطبيعى أن يحتلوا بارزا فى الدولة، إلا أنهم أساءوا إلى أنفسهم حينما تعصبوا لبنى جلدتهم وأسندوا مناصب الدولة الرئيسية لهم وكان غرضهم من ذلك أحياء الأمجاد الفارسية،

وأحس العرب بأنهم غلبوا على أمرهم أمام الفرس، ولكنهم ظلوا يقاومون النفوذ الفارسى مقاومة خفية، فنشأت بين الحزبين خصومة عنصرية واضحة منذ عهد الرشيد واستمرت حتى عهد المعتصم. وقد لعب ابن الربيع الذى أسند الرشيد إليه الحجابة وديوان الخاتم بعد أن سحبه من جعفر. دورا كبيرا فى هذا الصراع باعتباره من الحزب العربى المعادى للحزب الفارسى، فأخذ يدس ويكيد للبرامكة عند الرشيد، ومن الطبيعى لم يرض الحزب الفارسى المتمثل فى البرامكة بتغلب الحزب العربى عليه، فأخذ الصراع يزداد بين الجانبين خصوصا عندما بدأ الرشيد ينظر فى ولاية العهد، فقد تدخلت شخصية عربية أخرى وزنها فى الأحداث هذه الشخصية هى زوجة الرشيد زبيدة، وهى فى نفس الوقت ابنه عمه، فهى من عنصر عربى خالص وهى أم الأمين، أما المأمون وهو الابن الأكبر للرشيد فكانت أمه (مراجل) وهى فارسية، وقد انحاز الرشيد إلى زبيدة - أى إلى العنصر العربى - وعهد بولاية العهد إلى ولده الأمين، مع أن المأمون كان أكبر سنا، وأكثر نجابة وسوف يستمر هذا النزاع بعد الرشيد وينتج عنه تغلب الحزب الفارسى حيث يقتل المأمون أخاه الأمين، ويقع المأمون تحت تأثير أسرة فارسية مثل البرامكة، وهى أسرة بنى سهل.

بعض المؤرخين يرون أن البرامكة هم الذين سعوا فى ولاية العهد لمحمد الأمين حتى يتقربوا من زبيدة التى كان لها دالة على الرشيد، كما تقربوا إلى الخيزران من قبل حتى يتمكنوا من تنفيذ سياستهم عن طريقها خاصة وأن مفاتيح قصور الحريم كانت بيد يحيى البرمكى، أو ربما لأن الأمين كان صغير السن وكان على ولاية المشرق (فارس وخراسان) وأراد البرامكة أن يكون لهم الفضل فى خلافته وتنشئته كما فعلوا مع الرشيد فيحفظ الأمين لهم هذا الفضل ويستمر نفوذهم فى دولة بنى العباس، ولكنهم سرعان ما عدلوا عن رأيهم بعدما تبين لهم موقف العنصر العربى وزبيدة على وجه الخصوص منهم، ودبروا أمرهم بأن جمعوا وجوه الدولة العباسية وأشرافها وقوادها وقضاتها من عرب وخراسانيين وصحبوا هارون الرشيد فى حجة سنة ١٨٢هـ، وجعلوه يكتب عهد لابنه عبدالله المأمون بان يكون خليفة بعد أخيه الأمين وأن تسند إليه (المأمون) إدارة بلاد المشرق بعد وفاة هارون مباشرة، وبذلك تصبح خلافة الأمين وسيطرته على المشرق شكلية لأن

المشرق سيكون فى أيدى الحزب الفارسى (أى نفوذ البرامكة) ومعهم مراجل أم المأمون وابنها المأمون نفسه، وقد أخذ الرشيد على ولديه الأمين والمأمون المواثيق المؤكدة، وعلقها فى جوف الكعبة بعد أن وضعها فى حوافظ من الفضة، ثم جعلوه يكتب عهدا لولده الثالث القاسم (المؤتمن) سنة ١٨٦هـ بأن يتولى الخلافة بعد المأمون، كما أسند الرشيد إليه إمارة الثغور الشمالية (وتعرف بالعواصم) وكانت رباطا ضد البيزنطيين، وهكذا تمكن العنصر الفارسى من تقسيم الدولة بين أبناء هارون بما يتمشى مع رغباتهم ومصلحتهم الأمر الذى هدد وحدة الدولة ورأى بعض المؤرخين فيه فتنة ظاهرة لأن هذا التقسيم لم تعرفه الدولة الإسلامية قبل، فالحزب العربى خلافة للأمين، والبرامكة وهم حزب الفرس ضمنوا أن يكون المشرق الإسلامى فى أيديهم عن طريق المأمون، ولكن هل سكت الحزب العربى على هذا الوضع.

تحرك الحزب العربى وعلى رأسه زبيدة تحركا سريعا، وأكثر من وشياتهم ضد البرامكة عند الرشيد، فحركوا حفيظته وأوغروا صدره عليهم فأخذوا يذكرونه استبدادهم فى أمور الدولة، وانفرادهم بالأموال وحجرهم على ما يطلبه منهم، بينما هم يغدقون الأموال بلا حساب على أنفسهم وعلى أتباعهم، وقد لعب الفضل بن الربيع فى هذا الجانب دورا خطيرا لأنه كان حاجب الرشيد، وعن طريقه كانت تنقل هذه الأخبار (الوشايات) وتدس للرشيد الرسائل المثيرة بدون توقيعها من مرسليها مثل هذه الرسالة التى تضمنت الأبيات التالية:

قل لأمين الله فى أرضه ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا ملكا مثلك ما بينها حل
أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد
ونحن نخشى أنه وارث ملكك أن غييك اللحد

كما وضع الشعراء العرب أبياتا يثيرون بها حفيظة الرشيد على البرامكة وجعلوا مغنياته يترنمن بهذا الغناء مثل قول بعضهم:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

٣ - الجوانب السياسية والمذهبية:

لعبت الجوانب السياسية والمذهبية دورها البارز فى نكبة البرامكة فقد استغلها الفضل بن ربيع والحزب العربى وأوغروا صدر الرشيد، بها فاتهموا موسى بن يحيى البرمكى بأنه يميل إلى العلويين، ويعطى بعضهم صكوك أمان، ويسمح للذين يتصلون به منهم بالتحدث فى مشكلة أحقيتهم بالخلافة والإمامة فى حضرته وهل هى بالنص أو الاختيار، ووصلت درجة ميل البرامكة إلى العلويين إلى أن جعفر البرمكى - أطلق سراح زعيم طالبى هو يحيى بن عبدالله أخو النفس الزكية من سجنه بدون علم الرشيد وقد أشرت إليه، لأن إطلاق سراح هذا الطالبى (العلوى) فيه خطورة كبرى على الرشيد وعلى دولته لأنه المنافس له والمطالب بالإمامة، وهكذا عجلت الجوانب السياسية بنكبة البرامكة.

ومن الأمور المذهبية التى أخذت على البرامكة ووصفوا من أجلها بالزندقة أن يحيى البرمكى كان يجمع فى بيته علماء من ذوى النحل والملل غير الإسلامية ليناظروا علماء الإسلام فى أمور دينية ربما أدت إلى فتن داخلية خطيرة، ومع أن البعض يرجع هذه الاجتماعات إلى حرية الرأى والتسامح الدينى فى الإسلام مما كان مشهورا به يحيى البرمكى، إلا أن البعض الآخر وجد دعوة صريحة للزندقة والتشكك فى الدين.

ومن المآخذ على البرامكة كذلك عدم إلتزامهم بكتاب الله، فكانوا يشربون الخمر، ويحبون الخلوة مع الندماء، ويرتدون من الثياب نوعا مخصصا بهذه الحفلات الماجنة، كان لونها الأحمر والأصفر والأخضر، ولسوء حظ جعفر البرمكى وندمائه أن دخل عليهم وهم فى هذه الحالة أحد أقارب الرشيد يسمى عبد الملك بن صالح بن على العباسى، وكان رجلا شجاعا شديد الوقار، محتشما متمسكا بالدين، وكان الرشيد نفسه طلب منه قبل ذلك أن ينادمه فى الشراب فرفض، فلما رآه جعفر كاد عقله يقفز من رأسه حياء وخجلا وطلب من عبد الملك أن يطلب منه ما يريد حتى يرضيه، فطلب منه ألف ألف درهم ليقضى بها ديوانه، وولاية لابنه حتى يشرف فى بنى العباس وأن يتزوج ولده بابنة الرشيد فإنها

ابنة عمه، وهو كفء لها فأجابه جعفر إلى ما طلب وزوج ابنه بابنة الخليفة دون أن يأخذ رأيه فى الزواج من ابنته، فكانت من الأمور التى حركت الغضب فى صدر الرضيد ضد البرامكة وأثارت حفيظته عليهم.

٤ - قصة العباسة أخت الرشيد:

ترجع بعض المراجع العربية سبب نكبة البرامكة إلى قصة مزعومة ومنحولة ملخصها أن الرشيد كان يحب مجالسة أخته العباسة لأنها كانت على جانب كبير من الثقافة والذكاء النادر، وكان يحرص على أن تكون العباسة موجودة فى مجالسة الأدبية، وفى نفس الوقت كان يحرص على حضور جعفر البرمكى هذه المجالس لما تميز به هو الآخر من ثقافة وعلم وملاحة الحديث، ولكى يجمع الرشيد بينها فى هذه المجالس رأى أن يعقد على العباسة أخته جعفر البرمكى، واشترط على جعفر عدم الخلوة، حتى يكون هذا العقد صوريا فقط لاسقاط وجه الحرمة من اجتماع العباسة مع غريب عنها، ولكن حدث أن جعفر استعمل حقه الطبيعة بالعقد، واتصل سرا بالعباسة، ونتج عن هذا اللقاء السرى أن وضعت العباسة، طفلا أرسلت به بعد ولادته إلى الحجاز خوفا من أخيها الرشيد، غير أن إحدى الجاريات أخبرت الرشيد بما حدث، وسافر الرشيد بنفسه إلى الحجاز وتأكد من صحة ما قالته الجارية فكان ذلك سببا فى نكبة البرامكة.

ليس هناك شك فى أن هذه القصة مزعومة، ومن نسج الخيال، ويبدو أن للشعوبية دورا كبيرا فى اختراعها، فالشعوبية حركة سياسية أدبية كان هدفها الأول الطعن فى الجنس العربى والحط من شأنه، وإعلاء شأن العجم (الفرس)، وقد تولدت هذه الحركة نتيجة الصراع والتعصب بين الجنس العربى والعجمى، وكما هو واضح أن القصد من هذه القصة هو الحط من قيمة الرشيد وطعنه فى كرامته وعرضه وهو رأس الأسرة الهاشمية، ولاشك أن الرشيد لا يمكن أن يقدم على مثل هذا العمل المزرى ويزوج أخته سليه المجد والشرف والدين هذا الزواج الصورى الذى يسبب له الطعن فى رجولته وشرفه وكرامته، ولكى ندلل على بطلان هذه القصة الموضوع نذكر ما قاله ابن خلدون عن العباسة: (قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين، البعيدة عن عوائد الترف وموقع الفواحش. فأين

يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدوا من بيتها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم؟... ولو أن المتأمل فى ذلك نظر بإنصاف، ووازن العباسة بابنة ملك ملوك زمانه، لاستنكف لهـا عن مثله مع مولى من موالى دولتها، وفى سلـطان قومها، واستنكره ولج فى تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟).

ثم أن كتاب الأغانى الذى يهتم بمثل هذه الأساطير لجذب القراء والاستحواذ على تفكيرهم لم يقرب هذه القـصة من قريب أو بعيد، ولم يذكر العـباسة مطلقا فيمـا ذكره من نوادر وأساطير، ليس هذا دليـلا على عدم حدوث هذه الأسطورة؟ وما نراه ونرجحه أن نكبة البرامكة لم تكن بسبب قـصة العباسة أصلا، وإنما كانت بسبب ما أوردناه من جـوانب تسلط نفوذ البرامكة على الرشيد والخـلافة والصراع بين الحزبـين العربى (زبيـدة) والعجمى "مـراجل" وما دار فى فلك كل الحـزبين المتصارعين، وما رمى به البرامكة من ميل إلى الزنادقة وإلى العلويين... إلخ.

لجأ الرشيد إلـى عامل المفاجأة فى نكبة البرامكة ممن مـالوا إلى الزندقة فدبر لهم خطة محكمة حتى لا يهرب منهم أحدا، فأعطى أوامره ليلة السبت غرة صفر سنة ١٨٧هـ ٩ يناير سنة ٨٠٣م إلى بعض حـرسه الخـاص بالقبض على البـرامكة جميـعا وهدد بقتل كل من يأويهم، ونجحت الخطة، وقبـض على يحيى بن خالد وجمـيع ولده وخـاصته وأتـباعـه، ثم بعث الرشيـد ببعض رجـاله إلى منازلهم، ليتـحفظوا على أموالهم وكانت كـثيرة جدا أوردت المراجع تفـاصيلها، كـما أوعز الرشيد إلى خـادمه وحرسه الخاص مسـرور بقتل جعفر بن يحـيى والعودة برأسه، واضطر مسرور إلى تنفيذ تعليمان الرشيد، ونـكل بجثته فقيل أنه صلبها على أحد الجسـور، وقيل بل مزقهـا وأحرقهـا. ثم أمر الرشيد بعـد ذلك بقتل جمـاعة من البرامكة ولكنه استبقى يحيى البرمكى فى حبسـه وحبس معه جاريته ومغنيته دنانير لتقوم على خدمـته لأنه كان شيخا مسنا، ويقـال أنه أفرد عنه وعنها بعد ذلك لأن يحيى توفى بالرقة فى (المحرم سنة ١٩٠هـ سنة ٨٠٠م). أما الفضل بن يحيى فقد ضرب بالسوط ليقر عن الأموال التى أخفاها، وقد توفى بعد النكبة بخمس سنوات فى سجنه (المحرم سنة ١٩٣هـ / سنة ٨٠٩م).

وبخصوص محمد بن خالد البرمكى - أخو يحيى - فإنه لم يصبه من النكبة شيء لأنه كان بعيدا عما ارتكبوه من مساوئ، ومع ما نزل بالبرامكة فقد سمح الرشيد بعد فترة للشعراء أن يقولوا رثاءهم فيهم، وهكذا انتهى نفوذ البرامكة الذى استمر فى دولة الرشيد سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وأخذ الرشيد يتولى أمور الحكم بنفسه.

ترتب على نكبة البرامكة أن تحركت أحزان الفرس، وتذكروا مقتل أبى مسلم الخراسانى وربطوا بين الحادثتين فى عهد العباسيين، فعمدوا إلى تشويه صورة الرشيد واتهموه فى خلقه بأبشع الاتهامات، اختلقوا قصة العباسة التى نقلها بعض المؤرخين دون تحرز للنيل من الرشيد والعرب عامة.

على أن نكبة البرامكة تعتبر انتصارا للحزب العربى الذى تزعمته زبيدة زوجة الرشيد وأم ولده الأمين، ووقف إلى جوارها وزير الرشيد الفضل بن الربيع، كما أنها أتاحت للرشيد نفسه الفرصة لمباشرة شئون الخلافة بنفسه خاصة وأنه بلغ فى تلك الفترة الأربعين من عمره وهو سن الحكمة والاتزان.

صفات الرشيد ووفاته:

تصفه المراجع جميلا ملتحما طويلا أبيض البشرة، كان من أفاضل الخلفاء ومن أفصحهم وأكرمهم وأكثرهم علما، كان يتشبه فى أفعاله بالمنصور إلا أنه كان منه هبة وعطاء، فلام يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء وطالبى الحاجات مثلما اجتمع على باب الرشيد. إلى جانب هذه الصفات كان الرشيد شاعرا محبا للتاريخ وروايته، وكان وقورا مهيبا عند الناس جميعا، وكان يحج عاما ويغزو عاما خلال خلافته، باستثناء بعض السنوات ذهب ليحج ماشيا على قدميه ولم يحج ماشيا من الخلفاء غيره، وكان معه فى الحج مائة ألف من العلماء والفقهاء وأسرهم، وفى السنة التى يغزو فيها ولم يخرج للحج يأمر لثلاثمائة رجل بالنفقة والكسوة ليحجوا بدلا منه وكان يصلى كل يوم مائة ركعة، وكان متواضعا يحسن معاملة العلماء، يروى أنه صب الماء على يدى أبى معاوية الضرير - أحد العلماء - بعد الطعام ثم أخبره بأنه هو الذى صب الماء على يديه، فقال أبو معاوية: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا إجلالا للعلم، فقال الرشيد نعم.

اشتد المرض على الرشيد وهو بمدينة طوس، فاستدعى طبيبا فارسيا وعرض عليه (البول) مع قوارير أخرى، وبعد الفحص قال الطبيب الفارسى: أخبروا صاحب هذا الماء أنه ميت من علته هذه، وعليه أن يعهد بوصيته. توفى الرشيد يوم السبت ٤ جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ / سنة ٨٠٨م وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة اشهر.

***

محمد الأمين

١٩٣ - ١٩٨هـ / ٨٠٨ - ٨١٣م

بويع أبو عبدالله محمد الأمين بالخلافة فى صبيحة اليوم التالى لوفاة الرشيد، وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وعشرين سنة وكان موجودا حينذاك فى (مرو) بخراسان، ويقال بل كان فى بغداد وقد ولد سنة ١٧٠هـ فى نفس الليلة التى ولى فيها والده الرشيد الخلافة، ويعتبر الأمين الخليفة العباسى الوحيد الذى انحدر من أبوين عربيين هاشميين، فوالدته أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور، وأبو الرشيد، وربما كان ذلك من الأسباب التى قدمته على أخيه المأمون لأن أمه كانت أعجمية (أمة).

كان الأمين على عكس أبيه ومن سبقوه من خلفاء بنى العباس، فكان يقبل على اللهو ومعاشرة أهل المجون أرسل إلى جميع البلدان يطلب المهلين، فضمهم إليه، وأجرى لهم المرتبات، وأسرف كثيرا فى إنفاق المال على ملذاته ومتعته، فقسم ما فى بيوت الأموال وما فى حوزته من جواهر على خصيانه وجلسائه وندمائه، وأمر ببناء أماكن لمتنزهاته، ومواضع خلوته ولعبه ولهوه، ففى اليوم التالى لخلافته أمر ببناء ملعب بجوار قصر المنصور (ببغداد) ليلعب فيه الكرة، كما أمر ببناء حراقات (سفن) فى دجلة تكون على شكل الأسد، والفيل، والحصان، والحية، والعقاب وأنفق فى بنائها كان سيئ التدبير، كثير التبذير ضعيف الرأى أرعن لا يصلح للإمارة.

الفتنة بين الأمين والمأمون:

كثرت الفتن والاضطرابات فى عهده، ومن أبرز هذه الفتن ما وقع بينه وبين أخيه المأمون الذى ولاه الرشيد ولاية العهد سنة ١٨٣هـ / ٧٩٩م، وتعتبر هذه الفتنة من حيث خطورتها وأثرها على الدولة الإسلامية الثالثة بعد الفتنة التى حدثت فى عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان، والفتنة التى حدثت فى دولة بنى أمية بعد موت معاوية مؤسس الدولة الأموية مما ترتب على هذه الفتن تصدع الجبهة الإسلامية، وظهور أحزاب سياسية مختلفة الآراء.

يرجع سبب الفتنة بين الأمين والمأمون إلى وقوع كل منهما تحت تأثير ونفذ وزيره، فالفضل بن الربيع الذى لعب دورا كبيرا فى الانتصار للعنصر العربى الذى كانت تمثله زبيدة أم الأمين فى حياة الرشيد، واصل نفس الدور فى حياة الأمين الذى جعله وزيرا له، لأن الفضل بن الربيع أسرع بالعودة ومعه الجنود والأموال التى مع الرشيد فى رحلته بمدينة (طوس) التى توفى بها، وقدمها للأمين وبايعه بالخلافة ثم أخذ يصرف شئون الدولة.

أما المأمون فقد أسلم قيادة إلى الفضل بن سهل الذى كان وزيرا له، والفضل بن سهل هذا من سلالة فارسية مجوسية دخل الإسلام فى عهد البرامكة وكان يميل إلى إحياء القومية الفارسية التى بعثها أبو مسلم الخراسانى فى نفوس الفرس، وكان يدفع المأمون إلى الاستقلال بالمناطق الشرقية من الدولة العباسية (خراسان وما يحيط بها من أقاليم)، ولذلك عبر بعض المؤرخين بقوله أن أسباب هذه الفتنة يرجع إلى التنافس الخطير بين هذين الرجلين (الوزيرين) القويين ومحاولة كل منهما السيطرة على دولة بنى العباس، وأنها فى حقيقة أمرها نتيجة للصراع بين الحزب الفارسى، وقد حاول الأمين أن يمنع انفصال الأجزاء الشرقية التى كانت تحت نفوذ المأمون وحكمه رغبة منه فى الحفاظ على وحدة الخلافة التى تفتت بسبب تولى أكثر من ولى للعهد، ويبدو أن الأمين كان لديه انطباع بتكتل الحزب الفارسى ضده، وكان يعلم أن تقسيم الدولة على النمط الذى أجراه الرشيد بين أبنائه إنما كان من تدبير البرامكة وخاصة جعفر بن يحيى البرمكى الذى غرس فكرة ازدواج ولاية العهد فى دولة بنى العباس.

ومن الغريب أن المأمون كان يعمل مطن ناحيته، وبطريقته، أو بمعنى أصح بتأثير وزيره الفضل بن سهل، على الحفاظ على وحدة الخلافة ولذلك فكر فى القضاء على أخيه الأمين، وإقصاء الحزب العربى عن الخلافة وانفراد الحزب العجمى بها، فالفضل بين سهل هو الذى أجج نار الفتنة بين الأخوين وهو الذى سعى إلى فصل خراسان عن الدولة وربما يكون ذا يد فيما وصف به الأمين من ذميم الصفات حيث استعمل الشعوبيون خيالهم فى نسج، هذه الصفات حول الأمين الذى لم يوفق فى اختيار مستشاريه وخاصة حاشيته، ولم يفطن لما يحاك شده من مؤامرات فاتهمه المؤرخون بما اتهموه به.

تمكن الفضل من إقناع الأمين بعزل أخيه المأمون من ولاية العهد، وأن يجعلها فى ابنه موسى بن الأمين، وفعلا دعا الأمين لولده بالإمارة وجعله بعد أخيه المؤتمن، ثم ما لبث أن خلع المؤتمن ثم طلب من أخيه المأمون أن يؤخر نفسه، ويجعل موسى بن الأمين مكانه فى ولاية العهد، وطلب منه الحضور إليه فاستشار المأمون وزيره الفضل بن سهل وجماعة من خاصته، فحرضوه على الامتناع، فعمل برأيهم، وكتب إلى أخيه الأمين يعتذر وتمكن الفضل ابن سهل من استمالة العباس بن موسى، مبعوث الأمين إلى المأمون ولوح له بالإمارة على بعض المناطق فى مصر، فبايع المأمون سرا، وأصبح عينه فى قصر الأمين، يبعث إليه والى الفضل بن سهل بأخبار الأمين من بغداد.

عمل الفضل بن سهل على توسيع هوة الخلاف بين المأمون وأخيه الأمين، فعندما أرسل الأمين إلى بعض عماله فى خراسان يطلب منهم التنازل عن بعض كورها، حرض الفضل المأمون على الاستقلال بخراسان، وعدم إجابة ما طلبه الأمين كما أمر بسد الطرق والمنافذ المؤدية إلى خراسان، وعين عليها من يثق بهم من جنوده فضبطوا الطرق وأحكموا الرقابة عليها ولم يسمحوا بدخول أحد إليها إلا من كان يحمل جواز المرور، أو من كان معروفا لديهم من التجار، وفتشوا الكتب (المكاتبات)، كما حذر المأمون أهل خراسان من الميل نحو الأمين عن طريق الترغيب أو الترهيب، ثم بعث رسله إلى ملك كابول وملوك الترك وخاقان بالهدايا والهبات فخرجوا على طاعة الأمين. ثم شاع المأمون أن الرشيد أخذ بالفعل على الجند وعلى الفضل بن الربيع بالبيعة له بالخلافة، ومعنى هذا أن المأمون أصبح يمهد لنفسه بأحقيته فى الخلافة.

كان رد الأمين على هذه الأفعال إعلان البيعة بولاية العهد لابنه موسى، وسماه الناطق بالحق، وأمر بالدعاء له على المنابر بعده، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن فى ربيع الأول سنة ١٩٥هـ / ٨١٠م، وبعث برسله إلى مكة فآتوه بعهد الرشيد الذى كان قد كتبه وعلقه داخل الكعبة بخصوص ولاية العهد للأمين والمأمون، وأمر وزيره الفضل بن الربيع بتمزيق هذه العهود، ثم أخذ البيعة من بنى هاشم

والقواد والجند بولاية العهد لولديه موسى ثم عبدالله من بعده، وسماه القائم بالحق وبذلك نكث الأمين ما أخذه عليه أبوه الرشيد من عهود ومواثيق مما سيكون له أثره فى تطور الأحداث وحدوث الفتنة بين الأخوين.

غضب أهل خراسان من موقف الأمين، وانحازوا إلى المأمون يؤيدونه ضد أخيه وكان على رأس المؤيدين قائداً، جنده هرثمة بن أعين، وطاهر بن الحسين، الذى عسكر بالرى على رأس جيش كبير معظمه من الفرس الذين بعث بهم المأمون من خراسان، وفى الجانب المقابل تحمس الفضل بن الربيع وزير الأمين فى مساندته، ووقف معه قائدان عظيمان من قواده هما على بن عيسى بن ماهان، وعبد الرحمن بن جبلة وجهز الأمين جيشا من ثمانين ألف مقاتل معظمهم من عرب البادية وجعل قيادته لعلى بن عيسى الذى كان يكره أهل خراسان لأنهم دسوا عليه عند الرشيد فعزله ولاية خراسان وحبسه حتى أطلقه الأمين وعينه قائدا لجنوده، وخرج على بن عيسى بهذا الجيش الضخم فى شعبان سنة ١٩٥هـ، وقيل فى جمادى الآخرة، وخرج معه الأمين يودعه حاشيته.

وصل جيش الأمين إلى مشارف الرى، والتقى بجيش المأمون، ودارت الاشتباكات بين الفريقين، وتمكن طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون من إنزال الهزيمة بخصمه على بن عيسى قائد جيش الأمين وقتله، وأخبر القائد المنتصر سيده المأمون بهذا النصر فى كتاب بعث به إليه جاء فيه: "كتابى إلى أمير المؤمنين، ورأس على بن عيسى بين يدى، وخاتمه فى اصبعى، وجنده مصرفون تحت أمرى، والسلام" ولم يلبث طاهر بن الحسين أن أعلن خلع الأمين، الذى أطلق أهل خراسان عليه لفظ المخلوع، وأعلنت البيعة بالخلافة للمأمون، وهناك من يرى أن خلع الأمين حدث قبل هذه الموقعة.

بعض المؤرخين يرجعون هزيمة على بن عيسى إلى صلفه وغروره، ويستدلون على ذلك مما قاله قبل المعركة حيث افتخر بقوته، وشبه نفسه بالأسد، واستهان بقوة خصمه وشبهه بالبغل الذى لا يقوى على لقاء الأسد... الخ،

ووصلت درجة غروره إلى أنه أخذ معه قيدا من فضة ليقيد به المأمون بعد هزيمته، وفى رأينا أن الهزيمة ترجع إلى حقد أهل خراسان الدفين ضد على بن عيسى منذ أن كان واليا عليهم فى عهد الرشيد، فحاربوا ضده بشراسة فأحرزوا النصر عليه.

وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى مسامع الأمين، وكان يصطاد سمكا، فلم يكترث بل بالغ فى الاستهتار بالخبر، وأعلن غضبه على مبلغه لأنه قطع عليه لذة الصيد وقال له: "ويلك دعنى، فإن كوثرا قد اصطاد سمكتين، وأنا ما صدت شيئا بعد".

عاود الأمين إرسال جيش ثان من عشرين ألف مقاتل على رأسهم عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى، ووجهه إلى همذان، وأعطاه ولايتها وولاية كل ما يفتحه فى خراسان، ويبدو أن الأمين تسرع فى إرسال هذا الجيش ولم يحسن اختيار قائده، ولم يأخذ فرصة من الوقت لإعداده وتجهيزه، ووضع خطة يمكن التغلب على خصمه لأنه أراد أن يمحو آثار الهزيمة التى منى بها جيشه الأول، ويخفف من حدة الفوضى التى سادت البلاد.

وصل عبد الرحمن بن جبلة بجيشه إلى همذان، وبدأ فى تحصينها، ولكن طاهر بن الحسين عاجله بالمجئ إلى همذان فاضطر ابن جبلة لملاقاته على غير استعداد، ودار قال عنيف بين الجانين انتهى به هزيمة ابن جبلة وانسحابه إلى داخل همذان حيث جمع جنده ورتب صفوف مقاتليه، وخرج بعد بضعة أيام لقتال طاهر وجيش المأمون، ومع ذلك هزم ابن جبلة، وقتل من جنده الكثير، واعتصم داخل المدينة، فضرب طاهر عليها الحصار، فطلب ابن جبلة الأمان لنفسه ولمن معه، فوافقه طاهر ولكن ابن جبلة ما لبث أن هاجم خصومه على غرة وقتل منهم جموعا، إلا أن الهزيمة دارت عليه، وقتل فى المعركة.

أرسل الأمين جيشا ثالثا تعداده أربعون ألف مقاتل معظمهم من عرب الجزيرة (العراق) بقيادة أحمد بن فريد ومعه عبدالله بن حميد بن قحطبة، ووصل هذا الجيش إلى موضع خانقين، وتمكن طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون من بث جواسيسه داخل جيش الأمين، وأشاع الفرقة بين قواده وجنده فدب الخلاف بينهم وحدث اشتباك بين بعضهم البعض، وانسحبوا عائدين قبل مواجهة

خصومهم، ثم حاول الأمين تكوين جيش آخر من أهل الشام ليضرب بهم أهل خراسان، ولكن الشاميين رفضوا المسير تحت راية العباسيين السوداء، وبذلك فشل الأمين فى أن يجهز جيشا آخر لملاقاة أهل خراسان. ويبدو أن جند الأمين خافوا عدوهم، ونكصوا على أعقابهم، وماتوا رعبا من لقائهم فهرب بعض أنصار الأمين ليلا ومنهم عبدالله بن خازم ابن خزيمة حيث فر إلى المدائن، مما سبب لهم الهزيمة والفشل.

أعقب ذلك فترة مشحونة بالفوضى والارتباك فى مركز الخلافة ببغداد، حيث قام الحسين بن على بن عيسى بن ماهان، وهو ابن القائد الذى قتل فى الرى، قام بانقلاب ضد الأمين وأعلن خلعه من الخلافة، وحبسه فى قصر المنصور فى رجب سنة ١٩٦هـ / سنة ٨١٢م، هو وأمه زبيدة. وأعطى بيعته للمأمون هو وجموع من المعسكر، ولكن فريقا آخر من عسكر الأمين لم يرضهم هذا الوضع فتحركوا بقيادة أسد الحربى (من فرقة الحربية) ويبدو أنهاه حرس الخليفة الأمين، ومعهم العوام فى بغداد وخاصة أهل الأرباض فهاجموا الحسين بن على بن عيسى وأخذوه أسيرا، وخلصوا الأمين وأمه من الحبس، وأعادوهما إلى قصر الخلد، ثم استقدم الأمين الحسين بن على عنده، وعاتبه فاعتذر إليه فعفا عنه وأمره بقتال المأمون ولكنه هرب، فأدركه أتباع الحسين وقتلوه.

أما الفضل بن الربيع وزير الأمين، وصاحب النفوذ والسيطرة فى القصر الخليفى، فإنه لم يطمئن على نفسه عندما بلغت أحوال الدولة إلى هذا الحد من الفوضى والاضطراب فهو فى بغداد، واختفى عن الأنظار، ولم يظهر على مسرح الأحداث إلا بعد انتصار المأمون الذى عفا عنه، فبقى فيها إلى أن مات فى ذى القعدة ٢٠٠هـ / ٨٢٤م.

أخذ جيش المأمون يتقدم نحو بغداد، وتمكن قائده طاهر بن الحسين من أن يستولى على الأقاليم التى كتانت تخضع للأمين إقليما بعد آخر، فضم إليه إقليم الجبال جنوبى بحر قزوين، ثم منطقة الأهواز على حدود العراق سنة ١٩٧هـ / سنة ٨١٢م، ومنها اتجه إلى بغداد حيث ضرب هرثمة الحصار على الجانب الشرقى

من المدينة، بينما حاصر طاهر الجانب الغربى منها، حيث كان الأمين يعيش فى قصر الخلد ونصبت المنجنيقات وحفرت الخنادق، واستمر الحصار خمسة عشر شهرا، وأصيب عمران المدينة بأضرار بالغة بسبب قذائف المنجنيق (أحجار كبيرة ونفط مشتعل) فتهدمت أسوار المدينة ودمرت مبانيها، وشبت النيران فى أماكن كثيرة منها، فشوهت محاسنها، وأزالت معالمها، ونفدت الأقوات من المدينة، وعمت المجاعات وانتشرت الأمراض فى أتباع الأمين وكانوا من السوقة والغوغاء، لأنه لم يكن عنده جيش بالمعنى الحقيقى يتولى الدفاع عنه وعن عاصمة الخلافة، ومع هذا فقد قاتل هؤلاء بصرامة شهد قواد جيش المأمون، ودار القتال من مكان إلى مكان حتى سميت الوقعات باسم الدروب، وقتل منهم حوالى عشرة آلاف، واضطر الأمين إلى بيع ما فى خزانته من أمتعة، فضرب ما عنده من تحف ذهبية وفضية دنانير ودراهم لينفق منها على أتباعه.

طال الحصار، وتحرج الموقف وانصرف كثير من أعوان الأمين عنه، ومنهم محمد بن عيسى صاحب شرطته، بدأت الأحياء التى كانت مستعصية على جيش المأمون تسقط وتستسلم الواحدة بعد الأخرى، فقد استسلم حى الكرخ بأسواقه، ثم استسلمت واسط والكوفة والموصل والبصرة فاستباحها الجند ونهبوا القصور، وأحرقوا الدواوين بما فيها من وثائق، وأخذ قواد الأمين وخاصة رجاله يستأمنون لأنفسهم عند طاهر بن الحسين، وظهرت فرقة فى بغداد سمت نفسها المأمونية (نسبة إلى المأمون) وأخذت تنادى بالبيعة للمأمون، عندئذ قدم أصحاب الأمين له النصيحة بأن يخرج إلى الشام، ويعيد جميع قواته، وترتيب صفوفه، ولكن البعض الآخر - ربما بايعاز من طاهر بن الحسين - نصحه بأن يتنازل لأخيه عن الخلافة، واقتنع الأمين بهذه النصيحة، وطلب أن يسلم البردة والخاتم والقضيب وهى من مخلفات رسول الله ﷺ، وهى علامات الخلافة، إلى طاهر بن الحسين بينما يسلم نفسه إلى هرثمة بن أعين لكبر سنه، ولأنه كان قائد جيش الرشيد، واشترك فى نكبة البرامكة، ويميل بعاطفته إلى الحزب العربى، وربما كان قصد الأمين أن يصحبه هرثمة إلى المأمون فيعفوا عنه، أو أن يصحبه إلى الجانب الغربى

من بغداد ويساعده على الهرب من هناك، أو على الأقل أنه أراد أن يحنى نفسه من بطش طاهر بن الحسين أن ظفر به.

أرسل هرثمة بن أعين حراقة (لنش) فى نهر دجلة، وقفت بباب خراسان، وقبل أن ينزل الأمين فيها ضم إليه ولديه وشمهما وقبلهما ثم ذرفت عيناه بالدموع ثم نزل إلى الحراقة، ووقف له القواد اعظاما، وأقبل هرثمة جاثيا على ركبتيه وأخذ يقبل يديه ورجليه، ويبدى له الاعتذار، ولكن كمينا من الجنود أعده طاهر بن الحسين كان بالمرصاد للحراقة فرموهاه بالسهام والحجارة، فمالت وغرق معظم من كان فيها، وتمكن الأمين وهرثمة وبعض القواد من السباحة والوصول إلى الشاطئ ولكن أيدى جنود طاهر بن الحسين كانت فى انتظاره، فقبض عليه وأخذ قهرا، وسحب من ناصية شعره، ووضع فى السجن، حتى إذا كانت ليلة الخامس والعشرين من شهر المحرم سنة ١٩٨هـ / سنة ٨١٣م دخل عليه جمع مع الفرس فى أيديهم السيوف فقتلوه وحزوا رأسه وطافوا بها فى بغداد، ثم حملت إلى أخيه المأمون مع علامات الخلافة فلما رآها المأمون بكى وسجد وحزن لمقتله. وكان يرغب أن يرسل إليه حيا ليرى فيه رأيه ويقال أن المأمون حقد على قائد جنده طاهر بن الحصين لهذا السبب، فأهمله إلى أن مات طريدا بعيدا عن موطنه، ولكننا لا نميل إلى هذا الرأى بدليل أن الفضل بن سهل وزير المأمون قال له عندما رآه يبكى على قتل الأمين: "أن محمد - يقصد الأمين - كان يتمنى أن يراك بحيث رأيته" فأمر المأمون بوضع الرأس على خشبة فى صحن الدار، وأمر بلعنه، وقد دامت خلافته أربع سنوات وسبعة أشهر وعشرين يوما.

صفات الأمين:

تصفه المراجع التاريخية بأنه شديد بياض الوجه، صغير العينين، أقنى جميل، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، من أحسن الشباب صورة طويل، ذو قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة، قيل أنه قتل أسدا بيديه، كان فصيحا بليغا ذا أدب وفضيلة عالما بالشعر، سخيا بالمال، ولكنه بخيل جدا بالطعام، مع هذا فإن ابن الأثير وصفه بقوله: "لم نجد للأمين من سيرته ما نستحسنه فنذكره" ويخالفه

فى ذلك صحاب مروج الـذهب والطبرى وغيرهما مما ذكروا فضـائل الأمين ونفوا عنه شربه للخـمر، لأنه حبس أبا نواس لشربه إياها، ولأنه أمر قـائد جنده عندما أرسله لقتـال أخيه المأمون بأن لا يتـرك جنوده يعبثـون بالرعية، ونهاه عن انتـهاك النساء. . . إلخ.

* * *

عبدالله المأمون (أبو العباس)

١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م

تولى المأمون الخلافة رسميا صبيحة الليلة التى قتل فيها أخوه الأمين، وكانت يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨هـ حيث أخذت له البيعة من الجند فى بغداد، لأنه كان بالرى وظل بخراسان ولم يقدم إلى بغداد إلا فى شهر سفر سنة ٢٠٤هـ / سنة ٨١٩م. أول من لقب نفسه من العباسيين بلقب لإمام وإمام المؤمنين، كما أخذ لقب أمير المؤمنين أسوة بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولد المأمون سنة ١٧٠هـ قبل أخيه الأمين بستة شهور وأمه مراجل (أمه) فارسية، يعتبر المأمون من أعظم خلفاء بنى العباس، ومن أقدرهم وأعقلهم، كان يميل إلى الجوانب العلمية وخاصة علوم الحكمة التى أمر بنقلها إلى اللغة العربية ولذلك قرب العلماء والحكماء إلى مجلسه كما عنى بعلوم الطب، ومن فلسفته التى ألزم الناس بها قوله بـ (خلق القرآن) وسمع للعلماء بالمناظرة فى هذه المقالة (النظرية) وكان على رأس المتناظرين الإمام أحمد بن حنبل الذى عارض هذه النظرية وضرب بسببها.

ثورات العلويين:

لم تنقطع الفتن والاضطرابات بتولى المأمون الخلافة، بل اندلعت من جديد وخاصة من جانب العلويين، الذين انتهزوا فرصة الصراع داخل البيت العباسى، ومقتل الأمين، فقاموا بزعامة أبى السرايا (السرى) بن منصور الشيبانى بفتنة عارمة سنة ١٩٩هـ / ٨١٥م، وكان الذى حرض أبا السرايا على القيام بهذه الفتنة هو محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن على المعروف بابن طباطبا وكان شخصية علوية مرموقة تلخصت دعوته فى اكتساب الرضا من آل محمد، وهو نفس الشعار الذى رفعه بنو العباس والعلويون ونتج عنه قيام الدولة العباسية كما كان ابن طباطبا يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ، ونجحت الدعوة بهذا الأسلوب فى الكوفة مركز تجمع العلويين، والتف الناس

حولها، وتمكن أبو السرايا من الاستيلاء إليه الحسن بن سهل أمير العراق ولكن القدر لم يمهل داعى العلويين ابن طباطبا على الكوفة فى جمادى الآخرة سنة ١٩٩هـ، وبعد أن هزم الجيش الذى أرسله حيث توفى فى رجب أى بعد شهر واحد، وخلفه فى زعامة العلويين داعية آخر هو محمد بن محمد زيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الذى أمر أبا السرايا بمهاجمة العباسيين فى كل مكان بالكوفة حتى أجلوهم عنها، ثم أمر بضرب السكة ونقش عليها الآية القرآنية الكريمة "إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" تحريضا للعلويين على الاستمرار فى محاربة العباسيين الذين سلبوهم حقهم فى الخلافة – من وجهة نظرهم.

نتيجة لنجاح أبى السرايا فى الاستيلاء على الكوفة من يد العباسيين انتشر العلويون فى أماكن متعددة وقاموا بالفتن والاضطرابات، فقد بعث أبو السرايا جموعا من العلويين بقيادة زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين، وهاجم زيد مراكز العباسيين فى البصرة واستعمل الشدة والقوة فى مهاجمتهم، لدرجة أنه كان يأمر بحرق دورهم ولذلك سمى زيد النار، وفى مكة وثب العلويين بقيادة محمد بن جعفر بن محمد بن محمد بن على بن الحسين حيث أعلنت إمامته فرقة السبيطية من الحزب الشيعى وكان أبو السرايا بعث أحد العلويون من عنده وهو بن الأفطس الذى تمكن من الاستيلاء على مكة، ونزع عن الكعبة كسوة العباسيين، وكساها ثوبين أرسلهما أبو السرايا وعليهما شعار العلويين، وقطع الدعاء للمأمون من على المنابر وسام العباسيين العذاب، وأقام لذلك دارا خاصة عرفت بدار العذاب.

وفى المدينة وثب محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن، واستولى عليها، وأخذ فى طرد العباسيين منها، ولم يلبث أبو السرايا أن عين من قبله ولاة على المدائن والأهواز واليمن، وبذلك استفحل أمره، وعظم خطره على الدولة العباسية وشعر الحسن بن سهل الذى عينه شقيقه الفضل ابن سهل الملقب بذى الرياستين، والذى كان مديرا لشئون الخلافة، ومستحوزا على الخليفة المأمون، شعر

بعدم قدرته على التصدى لأبى السرايا، فلجأ إلى الاستعانة بقائد مجرب كان أبو السرايا يعمل قبل ذلك تحت قيادته هو هرثمة بن أعين، الذى تمكن من هزيمة أبى السريا واضطره إلى الفرار من الكوفة إلى القادسية سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م، ومنها اتجه إلى من خوزستان ولكنه وقع فى الأسر وأرسل إلى الوزير حسن بن سهل الذى أمر بقتله وبعث برأسه إلى الخليفة المأمون. كذلك بعث الفضل بن سهل بجيش يقوده إسحق بن موسى الذى كان عامل المأمون على اليمن وطرد منها بواسطة العلويين إلى مكة، فاستعادها من يد العلويين دون مقاومة تذكر، ومنح داعية العلويين فى فى مكة (محمد بن جعفر) الأمان بشرط أن يعلن تنازله عن الإمامة للخليفة المأمون، وقبل جعفر هذا الشرط، ثم سافر يريد مقابلة المأمون، ولكنه توفى الطريق، ولم يلبث أن عادت المدينة ومدن العراق إلى سلطة العباسيين ونفوذهم.

وفى اليمن تحرك العلويون بزعامة إبراهيم بن موسى الكاظم وطردوا العباسيين منها، كما قامت الفتن فى مصر والشام، ويبدو أن السبب فى تحرك هذه الفتن وظهور هذه الاضطرابات يرجع إلى تغلب الحزب الفارسى، فقد أصبح الفضل بن سهل هو كل شىء فى الدولة، لدرجة أنه تغلب على المأمون وأنزله قصرا عزله فيه عن أهل بيته وقواده، واستبد هو بالأمور من دونه ولقب نفسه الوزير الأمير، كما تلقب بذى الرياستين لجمعه بين الكتابة والقيادة فغضب لذلك بنو هاشم وذوو الرأى فى الدولة، فهاجت الفتن وكثرت الاضطرابات فى الأمصار، وانتهز العلويون الفرصة المتاحة لهم فاستولوا على المدن التى سبق أن ذكرناها فى مناحى الخلافة العباسية.

أراد هرثمة بن أعين أن يبصر الخليفة المأمون بما يقوم به بنو سهل واتباعهم من مؤامرات يدبرونها ضده بطريقة غير ظاهرة، خاصة بعد أن بسط الفضل بن سهل نفوذه على كل مقومات الدولة، وحبس المأمون فى قصر منعزل بمرو، فاتخذ مسيره إلى حيث يقيم الخليفة، وفطن ابن سهل لما انتواه هرثمة، فأوعز إلى المأمون بتوليته الشام والحجاز حتى يبعده عن هدفه والاتصال بالمأمون، وفهم هرثمة سر

هذا التعيين المفاجئ فرفض الولاية، وواصل مسيره إلى مرو ليطلع المأمون بضرورة على ما جرى فى دولته وما حجبه بنو سهل عن عينيه ويقنع المأمون بضرورة العودة إلى بغداد، وأعلن عن عزمه على ذلك.

وصلت كلمات هرثمة إلى مسامع الفضل بن سهل، فدس له عند المأمون بأنه هو الذى حرك أبا السرايا لينتزع من الخليفة ما انتزعه من مدن، وأنه سبب هذه الفتن وأنه رفض أوامر الخليفة بولاية الشام والحجاز، وأنه لابد من تأديبه ليكون عبرة لغيره وبذلك نجح الفضل فى أن يوغر صدر المأمون على هرثمة، وانتظر حتى وصل إلى مرو فأمر بعض أتباعه من الفرس بدقف الطبول حتى يسمعها المأمون فيزداد غضبه على هرثمة، لأن الطبول لا تدق إلا للخليفة، ويقال أن هرثمة هو الذى أمر بدق الطبول ليعلن عن مقدمه عند المأمون خشية من أن يحبسه ويباعد بينه وبين لقاء المأمون.

أمر المأمون بدخول هرثمة عليه، ثم وجه إليه تهمة إثارة الفتنة فى الكوفة وتحريض أبى السرايا ضده، وحاول هرثمة شرح الموقف للخليفة المأمون، فرفض الاستماع ولم يقبل منه إلا اعتذار، وأمر بحبسه وضرب أنفه، وأن يداس صدره، وانتهز الفضل هذه الفرصة فأمر بالتشديد عليه وتعذيبه؛ ولم يتحمل هرثمة ما أنزل به فى سجنه فتوفى بعد عدة أيام قليلة، وقيل بل قتل فى سجنه من أتباع ابن سهل.

نتج عن مقتل هرثمة أن ثار أهل بغداد على أمير العراق الحسن بن سهل، وطردوا عماله منها، وعلى رأسهم على بن هشام والى بغداد، ورغبوا فى مبايعة إبراهيم بن المهدى بالخلافة، فقبل. ولكنه خشى على نفسه من المأمون فاختفى لمدة ثمانى سنوات. وحاول أهل بغداد إصلاح ما فسد بسبب الفتن والثورات، وعرف القائمون بهذا العمل باسم المطوعة وكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وينصحون بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله.

عادت اليمن إلى نفوذ العباسيين، وعين الخليفة المأمون عليها محمد الزيادى وكلفه بتتبع الشيعة العلويين فى تهامه، فشيد مدينة زيدية، واستقرت له الأمور

فيها وأصبح شبه مستقلا باليمن، ولكنه دوام على الدعاء للخليفة العباسى من على المنابر، وعلى دفع الخراج، وبذلك كان ارتباطه بالخلافة من الناحية الدينية فقط، وقد بقيت اليمن فى ذريته على حالة استقلالها إلى منتصف القرن السادس الهجرى وعرفت بالدولة الزيادية.

على الرضا وولاية العهد:

أقلقت هذه الاضطرابات والفتن بال الخليفة المأمون، وخشى عاقبتها، لا سيما وأنها شملت مناطق متعددة فى الدولة وخصوصا مراكز الحزب العربى، ويبدو أنه أراد أن يخفف من وحدة هذه الفتن، ويطفئ نار الحقد والثورة التى أشعلها العلويون ضده، فقرر أن يجعل ولاية العهد فى رجل منهم (أى من العلويون) ويعلل البعض اختيار ولى للعهد من العلويين بأنه دسيسة من الفضل بن سهل الذى أراد السيطرة على العلويين كما سيطر على العباسيين، وربما أراد الفضل بهذا العمل أن يتقرب إلى الفرس الذين كانوا يميلون بطبيعتهم نحو العلويين فأخذ يهيئ الجو أمام المأمون ويزين الأمر له بتنفيذه، وينفره من العباسيين الذين خرجوا عليه فى بغداد حتى أقنعه بأن يختار الإمام على الرضا بن موسى الكاظم وليا للعهد سنة ٢٠١هـ. يذكر المؤرخون أن المأمون نظر فى بنى العباس، وبنى على، فلم يجد أحد يفضله ورعا، ولا علما، فاستقدمه إلى مرو حيث كان يقيم، وأنزله أحسن منزلة وأكرم، وفادته، ثم عرض عليه ولاية العهد، واعتذر على الرضا ولم يبد سببا لاعتذاره، لكن المؤرخون يفسرون هذا الرفض لعدة أسباب: منها أن ولاية العهد فى بنى العباس غير مستقرة منذ قيام دولتهم. فكيف تستقر له وهو علوى؟ وربما بسبب ما أصاب والده موسى الكاظم من تعذيب وسجن على يد المهدى ثم الر شيد من بعده حتى توفى وهو فى السجن لسنة ١٧٥هـ، وقيل بل فى سنة ١٨٣هـ، ويمكن القول أن العلويين كانوا لا يثقون فى العباسيين منذ انفرادهم بالدولة، ولعبت أزمة عدم الثقة عند على الرضا دورها فرفض أو اعتذر.

على أية حال تمكن المأمون من إقناع على الرضا بقبول ولاية العهد، وربما ألزمه بها، وبايع له يوم الثلاثاء الثانى من رمضان سنة ٢٠١هـ / مارس سنة

٨١٧م، ولقبه الرضا من آل محمد ﷺ، ثم كتب إلى الأمصار كلها بولايته للعهد، وأمر جنده بخلع السواد شعار العباسيين، ولبس الملابس الخضراء، وهو شعار مستحدث فى دولة العباسيين، لأن العلويين شعارهم البياض ثم ضرب اسمه على السكة من دنانير ودراهم، ثم زوجه ابنته أم حبيب، كما زوج محمد بن على بن موسى ابنته الثانية أم الفضل، ويبدو أن الإمام على الرضا قام بما كان هرثمة بن أعين يبتغيه، فأطلع المأمون على حقيقة الأوضاع فى الدولة، وشرح له سوء الأحوال السياسية والاجتماعية بسبب كثرة الاضطرابات والفتن، وما قام به الفضل بن سهل من تستر وإخفاء الحقيقة عليه، وما ادعاه كذبا على هرثمة بن أعين واستعان الإمام على الرضا فى ذلك بعدد من الشهود الموثوق فيهم، فأخبر وه بأن أهل بغداد غاضبون، ,قد بايعوا إبراهيم بن المهدى ولقبوه الخليفة السنى، لأنهم يرفضون أن تخرج الخلافة من ولد العباس، لأنهم يظنون أن مبايعة الإمام على الرضا بولاية العهد مؤامرة دبرها الفضل بن سهل لنقل الخلافة إلى العلويين.

أصر الخليفة المأمون إلى العودة إلى بغداد، فخرج من مرو سنة ٢٠٣هـ / ٨١٧م، وقدم عزم على التخلص من الفضل بن سهل، ومن على الرضا حتى صفوا له الجو، فلما وصل إلى مدينة سرخس دس بعض رجاله على الفضل فقتلوه وهو فى الحمام بدار المأمون فى الثانى من شعبان وأراد المأمون أن يبعد التهمة عن نفسه فأمر بضرب رقاب القاتلين، ففضحوه وقالوا له: "أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا. فقال: أنا أقتلكم بإقراركم وأما ما ادعيتموه على من أنى أمرتكم به فدعوى ليس لها بنية". أما الإمام على الرضا فإنه توفى بمدينة طوس فجأة فى صفر سنة ٢٠٣هـ / سنة ٨٠٨م بسبب تناوله عنبا مسموما، فصلى عليه المأمون ودفنه بالقرب من قبر هارون الرشيد.

وربما رجع المأمون إلى صوابه وقرر عدم نقل الخلافة إلى العلويين عندما انتدب الإمام عليا الرضا ليصلى بالناس ذات يوم عيد، فخرج على يرتدى البياض وهو يمشى إلى المسجد، فلماه رآه الناس هرعوا إليه يقبلون يديه ويتجمعون حوله فأسرع بعض حاشية المأمون إليه وقالوا: يا أمير المؤمنين تدارك الناس، واخرج وصل بهم، وإلا خرجت الخلافة منك الآن، فحمله هذا الأمر على الخروج

بنفسه، وجاء مسرعا والرضا لم يخلص إلى المصلى، لكثرة ازدحام الناس عليه، فتقدم المأمون وصلى بالناس.

ثورة أهل بغداد:

ويذكر البعض أن المأمون عدل عن رأيه فى تحويل الخلافة إلى العلويين بسبب ثورة أهل بغداد عليه، ومبايعتهم لإبراهيم بن المهدى بولاية العهد بدلا من على الرضا. وقد ساعد الحظ الخليفة المأمون بأن اختفت من طريقه إلى بغداد شخصيات لها دورها وأثرها فى الأحداث السياسية. فالفضل بن سهل، والإمام على الرضا قد قتلا، وإبراهيم بن المهدى الذى بويع بولاية العهد فى بغداد قد اختفى فى ذى الحجة سنة ٢٠٣هـ عندما علم بقدوم المأمون إلى بغداد، وظل متخفيا حتى سنة ٢١٠هـ، وكذلك اختفى الفضل بن الربيع وزير الخليفة الأمين (المخلوع) خوفا المأمون عليه، وحفاظا على حياته.

دخ ل المأمون بغداد سنة ٢٠٤هـ فنزل بقصر الرصافة، ثم انتقل إلى قصره على شاطئ دجلة، وأسرع بمعالجة الأمور، فأقر الخلافة فى بنى العباس، وعزلها عن العلويين، وأمر بالعودة إلى السواد شعار العباسيين، وترك اللون الأخضر الذى كان قد أمر به، كما أمر بالبحث عن إبراهيم المهدى حتى جئ به إليه، وكان إبراهيم قد اشترك فى مؤامرة تزعمها ابن عائشة وهو إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب لاغتيال المأمون ولكن المؤامرة انكشفت وفشلت، وقبض على الزعيمين متخفيين فى زى النساء وهما يحاولان الهرب واقتيدا إلى الخليفة، فأمر المأمون بقتل ابن عائشة ولكنه عفا عن إبراهيم بن المهدى الذى قدم اعتذارا رقيقا رق له قلب المأمون. ومن ضمن ما اعتذر به قوله: " . . . وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك" .

استقدم الخليفة المأمون عامله على الرقة وهو طاهر بن الحسين الخزاعى إلى بغداد فوصلها سنة ٢٠٥هـ فولاه المأمون إقليم خراسان ليعمل على عودة سلطان ونفوذ المأمون بعدما تلاشيا بسبب تسلط الفضل بن سهل واستبداده بالأمور فى خراسان، كذلك بعث ابنه عبدالله بن طاهر واليا على الجزيرة والشام ومصر، ووجد طاهر بن الحسين فى توليته خراسان إبعادا له عن مركز الخلافة وهو الذى

أبلى بلاء حسنا وقاد الخلافة إلى المأمون وهو بعيد عن بغداد خاصة، وأن المأمون كان قد نقله من بغداد إلى الرقة، وعين على بغداد الحسن بن سهل، لذلك عمل طاهر على أن يستقل بخراسان فأسقط اسم المأمون من خطبة الجمعة، ونقل كلثوم بن ثابت صاحب البريد فى خراسان هذا الحدث الخطير إلى المأمون، فدبر أمر قتله، ولكن طاهر بن الحسين توفى سنة ٢٠٧هـ بالحمى قبل أن تمتد إليه اليد التى أمرت بقتله وخلفه على خراسان ولده الثانى طلحة بن طاهر بن الحسين الذى حكم خراسان وتتكون فيها دولة شبه مستقلة عن الخلافة العباسية عرفت باسم "الدولة الطاهرية"، تكون بداية لظهور دويلات أخرى مثلها فى المشرق العربى، كما ظهرت دويلات مماثلة فى المغرب العربى.

ومن الثورات التى أقلقت بال المأمون ثورة قام بها نصر بن شبث العقيلى ومعه جموع كثيرة من العرب (بنى عقيل) المقيمين فى شمال حلب وكان من أنصار الخليفة الأمين وأتباعه وكان ينقم على المأمون ميله إلى الخراسانيين، وقد تغلب نصر بن شبث على المناطق المجاورة له، وانحاز إليه كثير من العرب، ومن العلويين الذين طلبوا منه أن يبايع خليفة منهم، ولكنه رفض ذلك، وقال أن هواى مع بنى العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب. ومع هذا فقد انتهت هذه الثورة بالفشل، لأن المأمون كلف عبدالله بن طاهر بن الحسين الذى كان على ولاية الجزيرة والشام ومصر بحرب نصر ومن معه ونجح عبدالله فى إنزال هزيمة بنصر وأتباعه وضرب عليه الحصار حتى طلب الأمان بشرط ألا يذهب إلى المأمون، خشية على حياته، فأبى المأمون هذا الشرط واستمرت الحرب بين الفريقين حتى أرغم نصر على الذهاب إلى قصر المأمون فى شهر صفر سنة ٢١٠هـ / ٨٢٤م بعد أن استمرت الحرب حوالى خمس سنوات.

حدث فى مصر عندما أعلن المأمون ولاية العهد لعلى الرضا، إن كاتب إبراهيم المهدى من العراق أعيان العرب فى مصر فمالوا إليه، وأظهروا غضبهم، فلما توفى الرضا واستعاد المأمون الخلافة فى بنى العباس انحاز جنود مصر للمأمون من جديد، وبذلك عمت البلاد الفوضى، فقد تدخل الجند فى تعيين الولاة

وعزلهم، كما تدخلوا فى تعيين رئيس الشرطة وعزله، ووثب بمصر رجل يقال له عبيدالله بن السرى بن الحكم سنة ٢٠٦هـ / سنة ٨٢١م، وكاد يستقل بها.

كذلك حدثت فتنة من العرب المهاجرين من الأندلس، فهؤلاء كانوا قد خرجوا على الحكم بن هشام وثاروا فى وجهه، فأمر بنفيهم خارج الأندلس، فانتقلوا إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى (مراكش)، ومنها قدموا إلى مصر، فهاجموا الإسكندرية ودخلوها، فتصدى لهم عبد الله بن طاهر، فطلبوا منه أن يمدهم بالسلاح والمال ورحلوا إلى جزيرة كريت وتركوا الإسكندرية سنة ٢١٢هـ فكان وجودهم بها سببا فى دخول الإسلام بهذه الجزيرة.

ثم ثار المصريون عربا وقبطا بعد رحيل عبدالله بن طاهر إلى خراسان التى تولى أمرها سنة ٢١٤هـ / سنة ٨٢٩م، ويرجع سبب ثورتهم إلى ميل بعضهم إلى المأمون وميل البعض الآخر إلى أتباع الأمين، وهؤلاء كانوا من القيسية واليمنية الذين احتلوا الفسطاط وطردوا عامل المأمون سنة ٢١٢هـ، فبعث المأمون أخاه المعتصم ومعه جيش من الترك، وجعل له ولاية الشام ومصر، وتمكن المعتصم من استرداد الفسطاط وقتل كثيرا من وجوه القيسية واليمنية، ولكن بعد عودته إلى الشام ما لبث أن ثارت جموع القبط فى الدلتا وجموع من العرب فى الاسكندرية وكانت ثورة القبط بسبب تشدد عامل المأمون وقسوته فى جباية الخراج الذى اتبع فيه نظام الالتزام أو قبالات. الأرض كما فرضت ضرائب على الأسواق ولم تكن معروفة فى مصر من قبل، فساءت الحالة الاقتصادية وتذمر المصريون فى كافة مدن الوجه البحرى لدرجة أن المأمون اضطر سنة ٢١٧هـ / ٨٣٢م إلى الخروج بنفسه على رأس جيش من جنوده متوجها إلى مصر لتهدئة الأحوال فيها وقد صحبه أخوه المعتصم وأولاد أخيه الواثق والمتوكل مما يعطى انطباعا على خطورة الثورة فى مصر ويبدو أن المأمون استخدم الشدة والعنف فى إخماد هذه الفتن وبقى فى مصر أقل من شهرين حتى هدأت الأحوال نسبيا، ثم عهد إلى قائده الافشين بإخماد ثورة القبط فى الحوف فقتل الافشين منهم عددا كثيرا، وسبا منهم جموعا، وأرغمهم على الخضوع لحكم المأمون، وحول بعض كنائسهم إلى مساجد، وأمرهم

بلبس علامات مميزة وبذلك أذلهم فى أرض مصر، وأضعف شوكتهم، ولم يخرج منهم أحد بعد ذلك على السلطان.

وفى خلال المدة القصيرة التى قضاها المأمون فى مصر عنى ببعض الإصلاحات الضرورية فأمر ببناء مقياس لمياه النيل فى الدلتا، فكان من أوائل المقاييس التى بنيت منذ عرفت مصر الإسلام، كما أمر بإقامة جسر على النيل، وبتحسين العملة الفضية حتى اشتهر الدرهم الرباعى الذى بقى مستعملا حتى مجىء الفاطميين إلى مصر، ويبدو أن المأمون وقف على سوء معاملة عامله عيسى بن موسى للمصريين بصفة عامة فعزله، واتهمه بسوء الحكم، وأنه كان السبب فيما حدث بمصر من انتفاضات وقال له: "لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك، وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتنى الخبر، حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد، ولكى يطيب خاطر القبط فى مصر سمح لهم بتعمير كنائسهم، وعودة الرهبان إلى الأديرة".

علاقة الخليفة المأمون بالدولة البيزنطية:

على الرغم من كثرة الفتن والثورات التى حدثت خلال عهد المأمون، فإنها لم تمنعه من إنزال لطمات قاسية ضد الامبراطورية البيزنطية، فقد تمكن المسلمون من الاستيلاء الكامل على جزيرة كريت "أقريطش" التى تقع فى مواجهة برقة فى البحر الأبيض المتوسط وكانت تعج بسكانها اليونانيين.

حقيقة أن كريت تعرضت للإغارات العربية والفتح الإسلامى فى عهود عثمان، ومعاوية والوليد بن عبد الملك وهارون الرشيد سنة ١٩٠هـ / ٨٦٠م، إلا أنها لم تكن كلها تحت سيطرة المسلمين كما حدث فى عهد المأمون، الذى اتفق مع المهاجرين الأندلسيين الذين نزلوا الإسكندرية بأن يرتحلوا إليها (كريت) - كما أسلفنا - وتمكن زعيمهم أبو حفص طاهر البلوطى من غزوها وإخراج الروم منها، وأصبحت قاعدة بحرية للمسلمين يبنون فيها السفن الحربية التى أغارت على الدولة البيزنطية، وكانت كريت تابعة للوالى العباسى فى مصر.

كذلك قام الأغالبة فى عـهد زياد الله بن إبراهيم الأغلبى سنة ٢١٢هـ بغزو جزيرة صقلية التى تعتبر أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط، وكان قائد الحملة، التى بلغ عدد جنودهـا عشرة آلاف، الفـقيه أسـد بن الفرات الخراسـانى الأصل نزلت الحملة جنوبى الجزيرة، ثم زحفت نحو شرقيا، وضربت الحصار على حصنها ومقر حاكمها، ولكن بيزنطة أرسلت أسطولا لنجدته مما جعل مهمة الحملة صعبة، وزاد فى صعـوبتها انتـشار الطاعون بين الجند المسـلمين ووفاة أسـد بن الفرات به سنة ٢١٣هـ/ سنة٨٢٨م، فاضطر المسلمون إلى فك الحصار والاتجـاه نحو شمال الجزيرة حيث حـاصروا مدينة بالرمـو فى سنة ٢١٦هـ، وظلوا عليها خـمس سنوات حتى استولوا عليها.

وفى سنة٢١٥هـ/ سنة ٨٣٠م، خرج المأمون ومـعه ابنه العباس متـجهين إلى الموصل ثم إلى منبيج، ثم إلى أنطاكية والمصـيصة وطرسوس وتمكن من فتح بعض الحصون، ويبـدو أن خروجه كان تمهيدا لغـزو الثغور البيزنطية، فـفى العام التالى سنة٢١٦هـ خرج المأمون بنفسـه ومعه أخوه المعتصم وفتح أكثـر من عشرين حصنا من حصون الروم منها حصن هرقلة.

أخذ المـأمون بعـد ذلك يحارب الإمـبراطور البـيزنطى تيـوفلس عن طريق تشجيع توماس الصـقلبى، الذى ثار على الإمبراطور فى آسيا الصغـرى، فقد أمده بالمال والرجـال، ووعده عرش الإمـبراطورية نفـسهـا. وكان رد الإمبـراطور على المأمون أن أتبع نفس الأسلوب فى محـاربته، فاحتضن الخزميـة أتباع بابك الخزمى الفارسى وسمح لهم بأن يتخذوا من الدولة البيـزنطية مركزا لنشاطهم ضد المأمون، وتمكن بابك من الخروج على المأمون والمعـتصم هو وأتباعه بالمناطق الجبليـة الواقعة شمال شـرقى حران وأعلن استقـلاله عن الدولة العباسيـة وبقى على ذلك حوالى ٢٢سنة (٢٠١ - ٢٢٣هـ) نشر خلالها مذهبه فى الإباحية والانحلال الخلقى.

استمرت هذه الحرب السياسـية بين الرجلين ولم يحرز أى منهما على لآخر نصـرا حاسمـا، حتى أن الإمـبراطور سـئم هذه الطريقة، وعـرض عليه المـأمون سنة٢١٧هـ عقد هدنة ورد أسرى المسلمين، وتبادل التجارات. . .إلخ ولكن المأمون عرض علـيه الدخول فـى الإسلام أو دفع الجزية، ثـم قام بحملـة تمكن فيـها من

الاستيلاء على حصن لؤلؤة بالقرب من طرسوس، وعزم على غزو القسطنطينية نفسها فى العام التالى، ولكن القدر لم يمهله حيث توفى يوم الخميس ١٩ رجب سنة ٢١٨هـ/ ١٠أغسطس سنة ٨٣٣م ودفن فى طرسوس.

المأمون يتزوج ابنة وزيره:

بعد أن استقرت الأمور للخليفة المأمون فى بغداد أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل، ثم طلب منه الزواج بابنته بوران وكان ذلك فى رمضان سنة ٢١٠هـ، ورحب الوزير بهذا الطلب، وتمت مراسم الزواج فى مدينة قم الصلح بالقرب من بغداد، وتصف المراجع حفل الزفاف، وما أنفقه الوزير الحسن بن سهل، وما أهداه من ضياع وعقار وجوارى وما نثره من أموال (دنانير ودراهم) ومسك وعنبر. . .إلخ وصفا لا يصدقه الإنسان.

العلوم والفنون فى عهد المأمون:

تميز عصر المأمون عن عصور ما قبله من خلفاء بنى العباس بأنه كان عصر العلوم والمعرفة لأن المأمون، كان محبا لتحصيل العلم ونشر الفنون فى دولته، يبدو ذلك واضحا فى إقامة عمارة (بيت الحكمة أو دار العلوم) فى بغداد وكان الرشيد قد وضع أساسها، ثم أمدها المأمون بما يحتاج إليه من مصنفات الكتب العلمية فى كل فرع من فروع المعرفة مما جلبه من بلاد الفرس والهند وبيزنطة وغيرها، حتى أصبحت هذه الدار أشبه ما تكون بجامعة لها مكتبة عامرة يؤمها العلماء والمثقفون وراغبو العلم والنساخون والمترجمون الذين أتقنوا الترجمة من اللغات الأخرى إلى العربية أو العكس، وقد عين لهذه الدار العلمية موظف عرف باسم (صاحب بيت الحكمة) كان يختار ممن يتصفون بصفة العقل والأمانة العلمية، ولذلك اعتبر بيت الحكمة أعظم المعاهد العلمية والثقافية التى أنشئت بعد مكتبة الإسكندرية القديمة ومدرستها.

حقيقة أن الخليفة المنصور كان أعلم رجال عصره، وأن أولى محاولات التعريب ظهرت فى أيامه، حيث أوجد ديوانا للترجمة عين فيه مترجمون توفروا على ترجمة كتب العلماء من غير المسلمين، وحقيقة أن البرامكة على عهد الرشيد

لعبوا دورا بارزا فى نشر جوانب متعددة من الثقافة الفارسية فى الدولة العباسيون ولكن المأمون فاق هؤلاء جميعا فقد انتشرت حركة الترجمة إلى العربية فى كل فروع العلم المختلفة تقريبا، ولميله إلى العلم وحبه للبحث وحرية الفكر استخرج كتب الفلاسفة وعلوم اليونان من جزيرة قبرص إلى جانب ما كان موجودا من هذه الكتب القيمة فى مراكز الحضارة القديمة فى الدولة الإسلامية مثل مدينة الإسكندرية التى اعتبرت مركز الإشعاع الفكرى والحضارى لمدن البحر الأبيض المتوسط جميعها وكذلك المناطق المجاورة لحضارة الدولة الإسلامية فى العراق مثل حران ومدن فارس وجند ياسبور، ثم كلف حنين بن اسحق (١٩٤ - ٢٦٠هـ/ ٨٠٩ - ٨٧٣م) والطبيب بختيشوع والحجاج بن مطر وثابت بن قرة بترجمتها إلى العربية واطلع على كثير مما جاء فيها.

كذلك أوجد مجالس المناظرة ليتمكن بواسطتها من الوصول إلى الحقيقة العلمية وإتاحة الفرصة للعلماء بإبداء آرائهم العلمية فى جو من الحرية وكان هو نفسه يشارك فى هذا الحوار العلمى، وقد دفعه ذلك إلى النظر فى علوم الأوائل، والتحدث فى علوم الطب، وتقريب العلماء وأهل الحكمة، ويكفى أن نذكر أن المأمون كان يعطى لحنين بن إسحق عن كل كتاب يترجمه إلى العربية وزنه ذهبا، ولذلك ترجم حنين وولده إسحق بن حنين ٩٥كتابا للسريانية، ٣٩ كتابا إلى العربية، وكان مرتب كل منهما شهريا (٥٠٠دينار).

ومن ناحية أخرى ينبغى الإشارة إلى الترجمة التى تمت بواسطة بعض أهل الفرس ممن ثاروا بالجوانب العربية والإسلامية، أو ممن لعبت الجوانب السياسية دورا فى حياتهم حيث نظر بعض هؤلاء إلى أنهم دعائم قيام الدولة العباسية، ولابد من تغطية هذه الدعائم بالنواحى العلمية والحضارية، فسارعوا إلى ترجمة كتب هندية وفارسية ويونانية وسريانية إلى العربية.

نذكر من هؤلاء ابن المقفع على عهد المنصور وهو فارسى الأصل، ومحمد ابن إبراهيم الغزازى الذى يعتبر أول من نظر فى علم الفلك، وأول من استخدم الاسطرلاب وكان فى عهد الرشيد، وكذلك محمد بن موسى الخوارزمى ويعتبر

من أشهر العلـماء المسلمين لما لهم سبق فى علم الرياضـيات حتى أن كتـبه كانت المراجع الأساسية للجامعة الأوربية حتى القرن ١٩م، وقد عاش فى عصر المأمون، ولهذا يطلق بعض المشتغلين بتاريخ الحضارات على العصر العباسى الأول أنه عصر تعريب التراث الإنسانى والحضارات السابقة على الإسلام.

ترتب على حركة الترجمة هذه أن انتـشرت اللغة العربية فى كل مكان ذهب إليه المسلمون، وأصبحت العربية لغة الحضارة كما هى لغة القرآن والشريعة وساعد على انتشارها أن الذين دخلوا فى الإسـلام من الشعوب الآسيوية اندفعـوا لتعلمها والتحدث بهـا ليقفوا على أسس التـعاليم الإسلاميـة سواء فى الجوانب التشـريعية والفقهية أو فى الجوانب الاقتصادية والمالية (معاملات. . .إلخ).

ومن ناحـية أخرى فـإن معظم الذين دخلـوا فى الإسلام من هذه الشـعوب الآسيـوية أرادوا أن ينسلخوا من لغاتهم كمـا انسلخوا عن دياناتهم لاعتـقادهم أن هذه اللغـات ذات صلة بالأديان التى تركـوها وراء ظهـورهم، فكان لابد لهم من تعلم لغة الإسلام والمسلمين فاقبلوا على تعلم العربية.

الجانب الأخر الذى ترتب على انتـشار اللغة العربية هو ظهـور مادة جديدة للكتابة غـير المادة التى كانت تحتكرها مـصر منذ القديم (ورق البردى) فـقد عرف الدولة الإسلامية على عهد الرشيـد صناعة الورق الذى عرفته الصين سنة ١٠٥م، فقـد انتقلت صناعـته إلى سمـرقند سنة ٧٥١م ومنها إلى بغـداد سنة ٧٩٤م حيث انتشرت صناعته فى عواصم الدولة الإسلامية كلها تقريبا.

كان من نتيجـة حرية الرأى والمناقشات بين طبقة العلمـاء فى قاعة المناظرات أن ظهرت بعض النظريات العقـائدية التى تسببت فى وجود الفرق الإسـلامية مثل المعتزلة التى أصبحت المذهب الرسمى للدولة العباسـية منذ عهد المأمون حتى عهد المتوكل أى قرابة قرن كامل من الزمن، وقد اعتقد أصحاب هذا المذهب بأن القرآن مخلوق، ودار حول هذا الاعتـقاد كثير من الآراء بين العلماء والقـضاة، واختلفوا اختلافا بينا حوله، فقد تزعم علمـاء المعتزلة وعلى رأسهم ابن الهزيل، وابن سيار والجاحظ الرأى القائل بأن القرآن مخلوق، ومعنى هذا انه محدث وليس أزليا ونفوا

أنه كلام الله عز وجل، كما تناولوا بالبحث صفات الله عز وجل وزعموا أن الله لا يرى جهرة يوم القيامة، ويقال أن المأمون شارك فى المناقشة فى هذه الآراء وأنه اعتمد فى صحتها، وأرسل فى سنة ٢١٨هـ إلى اسحق بن إبراهيم بن مصعب (والى بغداد) كتابا مطولا يقيم فيه الدليل على صحة هذا الرأى، الذى أخذت به المعتزلة، وقد توعد فى هذا الكتاب كل من يخالف القول بذلك من الموظفين بإقالته من وظيفته، وأخذ المأمون يمتحن بنفسه القضاة والعلماء والشهود وأهل الفقه والقراء ليقف على رأيهم فى مشكلة خلق القرآن فمن اعترف بأن القرآن مخلوق أخلى سبيله، ومن عارضه أعلمه برأيه وأمره أن يلتزم به، وكان الإمام أحمد بن حنبل ممن أصر على أن القرآن كلام الله عز وجل وأنه قديم أزلى، وليس مخلوقا، فأمر المأمون بشد وثاقه فى الحديد مع مجموعة كانت معه وأرسلهم جميعا إلى طرسوس ليبعدهم حتى لا يتأثر الناس بقولهم، وفى نفس الوقت قرب إليه أتباع مذهب المعتزلة، الذين أصبح نفوذهم كبيرا فى الدولة وخاصة عند الخليفة المأمون، ووصل من درجة افتتان المأمون بهم وبنظريتهم أنه كاد يثير حربا داخلية فى الدولة لتأثيره بآراء المعتزلة.

ومن المسائل التى اختلافا ومناقشات كثيرة وحامية بين العلماء، وأصحاب الرأى نظرية الخلافة وفيمن تكون شرعا بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقد رأى علماء المعتزلة أن عليا هو خير الناس بعد رسول ﷺ ومعنى هذا أن الخلافة ينبغى أن تكون له ولذريته من بعده، كذلك حثوا الناس على ذكر معاوية بالخير لموقفه من على رضى الله عنه ومن ذريته من بعده. ويبدو أن المأمون كان يريد أن يجمع الأمة الإسلامية على مذهب عقائدى واحد فمال إلى المعتزلة لأن رأيها فى الإمامة كان يتفق مع فهمه فى أن العلويين أحق الناس بالخلافة لدرجة أنه عليا الرضا الإمام الثامن من أئمة الشيعة الاثنا عشرية لولاية العهد، ولكن المأمون لم يحرز شيئا من النجاح فيما ناقشه من مسائل ولم يتوصل إلى هدفه الذى كان يسعى إليه وهو توحيد كلمة الأمة فى هذه الأمور التى جرت عليها الشقاء والبلاد، وكانت سبب تفرقها شيعا وأحزابا.

صفات المأمون ووفاته:

تغلبت على المأمون ثقافته الفارسية التى ربما كانت لأمه (مراجل) أثر كبير فيها، ويجمع المؤرخون على أنه أفضل رجال بنى العباس رأيا وحلما وعزما، وأكثرهم دهاء وشجاعة وهيبة، وأنه لم يجلس على كرسى الخلافة من العباسيين من هو أعلم منه.

كان مولعا بلعبة الشطرنج، وكان يعلل ذلك بقوله: "أنها تشحذ الذهن" مضيافا، فمن عادته إذا حضر إليه الفقهاء والعلماء الذين يناظرونه أدخلهم حجرة مفروشة، تعد فيها موائد الطعام والشراب، فيتناولون منها ما يشاءون ثم يمر الخدم عليهم بالمباخر يحرقون البخور، ويقدمون الطيب، وبعدها ينتقلون إلى غرفة المناظرة، حيث يتناظرون فى المسائل المختلفة حتى غروب الشمس، ثم تقام لهم مأدبة الطعام والشراب مرة ثانية، فيصيبون منها ما يشاءون وبعدها ينصرفون.

تصفه المراجع التاريخية بأنه كريما أدبيا عالما، نشر العلم وشجع العلماء، وقرب الأدباء، وأغدق عليهم الهبات والعطايا، حتى أصبح عصره من أزهى عصور الأدب فى العصر الإسلامى لأنه كان نفسه ضليعا فى الأدب، يذكر عمارة بن عقيل أنه أنشد المأمون قصيدة يمدحه فيها، وكانت مائة بيت، فكان كلما ابتدأ عمارة بصدر بيت من الشعر، بادر المأمون يذكر الشطرة الثانية، فقال عمارة: والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط، فقال المأمون: هكذا ينبغى أن يكون، تحلى بكثير من الصفات الحميدة، فقد كان يكره الانتقام من خصومه ويميل إلى العفو عند المقدرة، والدليل على ذلك أنه عفا عن إبراهيم بن المهدى الذى أعلن نفسه خليفة نحو عامين سبب فيهما الكثير من القلق للمأمون. أما كرمه فيظهر لنا من المنحة التى وهبها وزيره الحسن بن سهل أن تزوج ابنته بوران، فقد منحه عشرة آلاف وأطلق له خراج فارس والأهواز مدة من الزمن وكذلك عندما كان فى دمشق وقل المال بين يديه فاشتكى ذلك إلى أخيه أبى أسحق المعتصم فأرسل إليه مالا كثيرا حملته أباعر كسيت بأحسن هيئة فلما وصلت هذه الأموال نظر إليها المأمون وفى صحبته يحى بن أكثم فاستكثرها وعظمت فى عينيه ووصلت أخبار هذه

الأموال إلى العـامة فخـرجوا ينظرون إليـها ويعجـبون من كثـرتها، فقـال المأمون ليحيى: يا أبا مـحمد! ينصرف أصحابنا هؤلاء الذيـن تراهم خائبين إلى منازلهم، وننصرف نحن بهـذه الأموال قد ملكناها دونهم؟ أنا إذا لـلئام. ثم دعا محـمد بن يرداد، وأخذ يأمره بتوزيع الأموال، ويسمى له الأشخاص، ويحدد المبلغ حتى وزع معظم هذه الأموال، ومع كل هذه الصفات الحمـيدة نجد أن بعض المؤرخين اتهموه بالغفلة وعدم تقديره للأمور، ويأخذون عليه أنه ارتكن إلى وزيره الفصل بن سهل الذى استبد بـالأمور من دونه، وأنه خضع له واستمع إليه وأمـر بحبس هرثمة بن أعين الذى ذهب إليـه ناصحا ليـطلعه على أحوال البـلاد واستبـداد وزيره الفضل بأمور العـباد، ولو لم يتدارك الأمر بنفـسه وانتقل إلى بغداد، وأدار شـئون الدولة بحزم وعزم لفسد ملكه وضاعت الخلافة من بنى العباس.

توفى المأمـون بالحمى يوم الخـميس ١٦ رجب سنة ٢١٨هـ/ أغـسطس ٨٣٣ أثناء رحيله إلى فتح عاصمة الروم (القـسطنطينية) وقد تخطى الثامنة والأربعين من عمـره، ودفن شمال مدينة طرطوس. فى دار كـانت لخاقان خادم هارون الرشـيد وكانت خلافته عشرين سنة، وخمسة أشهر، وثلاثة وعشرين يوما.

* * *

محمد المعتصم

٢١٨ - ٢٢٧هـ/٨٣٣ - ٨٤٢م

تولى أبو إسحق محمد المعتصم أمر الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون، وكان حينذاك على ولاية الشام ومصر فى عهد المأمون، الذى عهد إليه بالخلافة عندما اشتد عليه مرض الحمى، وعدل عن تولية ابنه ابن العباس بن المأمون الذى كان يتمتع بسمعه طيبة، وشهرة واسعة بين الجند العرب، ولذلك رفض الجند فى أول الأمر أن يعطوا البيعة للمعتصم، وأرادوا تولية العباس بن المأمون، ولكن العباس سارع إلى مبايعة عمه المعتصم احتراما لعهد أبيه، وبذلك اضطر الجنود إلى مبايعة المعتصم.

سار الخليفة المعتصم على سياسة أخيه المأمون، ونفذ ما أوصاه به من أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، وأن ينزل الأذى بكل من يعترف بغير ذلك من العلماء وأهل الرأى، وأن يهتم بأمر الرعية، وخاصة العامة فأن الملك بهم، ولذلك نجد أن المعتصم يلجأ إلى إهانة الإمام أحمد بن حنبل ويأمر بحبسه لإصراره على عدم الاعتراف بخلق القرآن، وأصبح العلماء والقضاه فى خوف من الاضطهاد المحيط بهم، ومن وسائل التعذيب الجلد بالسياط إذا لم يعترفوا بأن القرآن مخلوق.

موقف المعتصم من العلويين:

واصل المعتصم سياسة الشدة مع العلويين كما سار عليها آباؤه من قبل، ولم يتبع سياسة المأمون معهم، ولجأ إلى الحيلة والمكيدة للتخلص من قربهم المأمون إليه.

فقد تخلص من محمد بن على الرضا روج أم الفضل ابنة المأمون خشية أن يطلب الخلافة من باعتبار أن أولاده ينتسبون إلى المأمون من ناحية أمهم، وأنه هو نفسه (أى محمد الجواد) ابن على الرضا الذى كان ولى عهد الخليفة المأمون. ولكن محمد الجواد توفى بعد وصوله سنة ٢١٩هـ، واتهمت زوجته بدس السم له، وربما كان ذلك بإيعاز المعتصم لها.

كذلك تخلص من محمد بن القاسم بن على بن عمر بنعلى بن الحسين الذى رحل من الكوفة إلى خراسان لخوفه من بطش المعتصم وفى خراسان انضمت إليه جموع كثيرة من أهلها، وثارت المخاوف فى نفس المعتصم، فأرسل إليه بعض جيوشه، فهزمت فى كثير من المواقع فى خراسان، ولكن عبد الله بن طاهر تمكن أخيرا من حمله إلى المعتصم، فحبسه فى سامراء حتى مات فى حبسه وقيل أنه قتل مسموما.

فتنة الزط بالبصرة:

من المصاعب التى واجهت المعتصم خلال فترة حكمه ثورة الهنود المعروفين بالزلط، وكانوا قد سكنوا المناطق الجنوبية من العراق والبصرة منذ الفتوحات الإسلامية الولى على عهد الشيخين، وقد بدأت ثورتهم فى فترة النزاع ما بين الأمين وأخيه المأمون، الذى أرسل لهم جيشا بعد الآخر لمحاربتهم، ولكن ثورتهم لم تخمد وظلت تشكل خطرا على الدولة العباسية وعلى مواردها الاقتصادية خاصة بعدما استولوا على الطريق المودى إلى البصرة، وفرضوا الإتاوات والمكوس الظالمة على سفن التجارة ثم حاولوا دون وصول المؤن والأقوات إلى بغداد نفسها.

وجه المعتصم جيشا لمحاربتهم على رأسه عجيف بن عنبسة فى جمادى الآخرة سنة ٢١٩هـ فنزل بالقرب من واسط، وأخذ يسد عليهم المسالك البرية والنهرية، وحاصرهم من كل جانب، وقاتلهم قرابة تسعة شهور، وقتل منهم فى أحد المعارك ٣٠٠ مقاتل وأسر ما يقرب من ٥٠٠، ولكنه أمر بضرب أعناق الأسرى، فنزلوا على رأيه وطلبوا منه الأمان وكان عددهم حوالى سبعة وعشرين ألفا بين رجال ونساء وأطفال وبلغ عدد مقاتليهم أثنى عشر ألفا، وقد حملهم عجيف فى السفن إلى بغداد سنة ٢٢٠هـ فأمر المعتصم بنفيهم إلى عين زرية فى آسيا الصغرى، فظلوا بها حتى وقعوا أسرى فى أيدى البيزنطيين سنة ٢٤١هـ فى خلافة المتوكل على الله العباسى، فنقلهم البيزنطيون إلى القسطنطينية ومنها وجدوا طريقا إلى أوربا ونزل بعضهم إلى أسبانيا ويرجح أستاذنا الدكتور العبادى أن الغجر الموجودين فى أسبانيا حاليا من سلالة الزط، ويعرفون باسم جيتنو وهو قريب جدا

من الاسم الفارسى للزط (جت) خاصة وأن هؤلاء الزط اشتهروا فى المشرق الإسلامى بانشغالهم بالغناء والرقص وإلهاء الجماهير.

ظهور العنصر التركى:

اعتمد خلفاء بنى العباس الأول على العنصر الفارسى الذى لعب الدور الأول فى قيام الدولة العباسية، ثم أخذ البعض منهم يوزان فى سياسته بين العنصر العربى والعنصر الفارسى ولكن المعتصم أدخل على مسرح النزاع عنصرا ثالثا هو العنصر التركى الذى ظهر لأول مرة فى تاريخ الخلافة العباسية، وأخذ يعتمد عليه اعتمادا كليا، وربما كان السبب فى ذلك راجعا إلى أن أم المعتصم (مارية) من الجوارى العناصر الفارسية فأراد أن يضربهم بعنصر جديد غير العنصر العربى الذى ضعفت شوكته ولانت عريكته أمام ازدياد النفوذ الفارسى فى الدولة العباسية، فالترك على عداء قديم مع الفرس ثم أنهم معروفون بشدة البأس، وقوة المراس، وإصابة الرمى بالسهم والحربة وهم على ظهور الخيل.

أسند المعتصم للترك مناصب الدولة الرئيسية، واستكثر من شرائهم حتى بلغوا خمسين ألفا، وكان يجلبهم من أسواق الرقيق (أسواق النخاسة) فيما وراء النهر حيث بلاد القفجاق، وكون منهم جيشا كبيرا يقوم بالدفاع عن الدولة، كما اتخذ لنفسه منهم حرسا خاصا، وأهمل العنصر الفارسى والعربى إهمالا تاما، بل أنه اسقط العرب من ديران العطاء، ويقال أن العرب المقصودين هنا هم عرب الحوفين الشرقى والغربى فى مصر لدرجة أن البعض عبر عن ضلك بقوله: انقرضت دولة العرب من مصر، وأن عصبية العرب فسدت فى دولة المعتصم بالله ويعزو البعض أن السبب فى إسقاط العرب من ديوان العطاء يرجع إلى غضبه منهم حيث دبروا له ولقواده منها التخلص من المعتصم وحاشيته الأتراك، وانتهزوا فرصة خروجه فى جملة (عمورية) ضد الروم واتفقوا مع العباس بن المأمون على تنصيبه فى الخلافة، ولكن المؤامرة انكشفت قبل تنفيذها وقبض المعتصم على ابن أخيه (العباس) كما قبض على زعماء المؤامرة ومدبريها، ودفن الجميع على قواده من الترك لتعذيبهم والانتقام منهم.

ثورة المبرقع اليمانى:

سخط العرب على المعتصم بسبب موقفه منهم، وانتهز زعمائهم الفرصة لتحريض أتباعه وإثارة الناس ضده، وقد انتهز أبو حرب المبرقع اليمانى فرصة دخول أحد الجند فى داره وهو غائب، فأشعل نار الثورة فى فلسطين قبل موت المعتصم بقليل، وتربص بهذا الجندى حتى قتله، ولكنه خشى على نفسه من انتقام الترك منه، فتخفى بأن وضع على وجهه برقعا وهرب إلى بلاد الأردن حيث أخذ يحرض الناس على المعتصم، ويزعم أنه أموى، فالتفت جموع كثيرة حوله وخاصة من اليمانية، فأرسل إليه المعتصم جيشا يربوا على المائة ألف جندى، تمكت قائده من القبض على لمبرقع بعد أن انخفض عنه أكثر أتباعه وذهب به إلى سامراء حيث كان يقيم المعتصم.

ثورة بابك الخزمى:

ترتبط هذه الثورة والقائمون بها بمعتقدات الفرس القديمة سواء كانت مجوسية أو زرادشتية، ثم مزجت بأهداف قومية الغرض منها إحياء دولة فارس والعودة إلى دينهم القديم، مما هدد كيان الخلافة العباسية، وظهرخطرها على عهد المأمون ولكنه استشرى على عهد المعتصم، ويرجع نسب بابك الخزمى إلى أبى مسلم الخراسانى، وقد أعتصم فى منطقة الجبال بالقوقاز وظل معتصما بها منذ عهد الرشيد ولم تتمكن جيوش الدولة العباسية من هزيمته، وفى عصر المعتصم زادت خطورة الحركة الخزمية فقد أمدها الإمبراطور ثيوفيل بن ميشيل العمورى بالمال والعتاد نكاية فى الدولة العباسية التى ساءت علاقتها مع الروم، وقد تمكن المعتصم من محاربة الخرمية فى أول عهده فى نواحى همذان ٢١٨هـ/ ٨٣٣م وقتل منهم ما تقدره المراجع بستين ألفا، ولكن الخزمية قتلت من المسلمين نساء وأطفالا وجنودا ما يزيد على المئة ألف فى سنة ٢١٩هـ، ثم هزمت جيوش المسلمين فى سنة ٢٢٠هـ كذلك، وأخيرا أرسل المعتصم جيشا من الترك يقوده الأفشين بنفسه سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م وقد زود هذا الجيش بالعتاد الحربى وبقاذفات اللهب (النفطية) ولكن قسوة البرد، ووعورة البيئة الجبلية لم يتمكن الافشين من إحراز نصر على

الخزميـة، ثم لجأ الافشيـن على بلدة بابك نفسها فـدمرها وأحرقهـا وأوقع ببعض قـواده، وأسر أبنـاء بابك وذريته، ولـكنه تمكن من الإفـلات مع أهله وولده ونزل بمكان فى أرمينية لـم يلبث أن قبض عليه هناك وأرسل إلى المعتـصم فى صفر سنة ٢٢٣هـ/ يناير٨٣٨م فشهر به إمام أهالى سامراء، ثم أمر المعتصم بقتله والتمثيل به جزاء ما اقترفت يداه من كثرة القتل فى المسلمين لدرجة أن بلغ عددهم ما بين ربع مليون قتيل إلى مليون قتيل.

حرب الثغور (عمورية):

استغل الإمبـراطور البيزنطى ثيوفيل فـرصة انشغال المعتصم وجـيوشه بثورة بابك الخرمى، وأراد أن ينتـقم منه بسبب مـساعدة المأمـون لتوماس الصـقلبى ضد الروم، فبدأ بمساعـدة بابك الخرمى، كما قدمنا ذلك، ثم أخذ يجهـز جيوشه التى بلغت أكثـر من مائة ألف جندى وهاجـم شمال الشـام والجزيرة، واسـتولوا على مدينة زبطرة سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٨م وقتلوا من بها من المسلمين ثم اتجهوا إلى مدينة ملطية القريبة منها وكانت من أهم ثغور المسلمـين، فنهبوها وقتلوا الكثير من أهلها وسبوا غير قليل من نسائها وذراريهـا، ويقال أن امرأة هاشمية ممن وقعن فى الأسر صاحت تسـتغيث بقـولها: وامعـتصماه. . . . وامـعتصـماه، فلما بلغـه هذا النبأ استعظمه وكبـر عنده وقال: لبيك. . . لبيك ونهض من ساعته وصـاح فى حاشيته النفير. . . النفير عندئذ أرسل المعتصم عـجيف بن عنبسه القائد العربى الذى قضى على بابك الخرمى وذريتـه، أرسله على رأس فرقة من جـيشه ومعـه بعض القواد لاستخلاص زيطرة من أيدى الروم، وربما لم يحولوا دون تقدم الجيش البيزنطى فى أراض الدولة الإسلامية حـتى يستكمل المعتصم تجهيـز جيشه وفعلا جـهز المعتصم جيشا تعداده حوالى مائـه وثلاثين ألف مقاتل من الترك والعرب والعجم ومن أهل الشام والجـزيرة. تعطينا المراجع تفاصـيل مثيـرة عن تقسيـماته وأسلحتـه وأولويته وميـرته وعتاده وعدته التى خـرج فيهـا، وزاد من حماس هذا الجيش أن المعـتصم خرج على قيادته بنفسه يساعده قواده الآخرون مثل الافشين وأشناس.

دخلت جيوش المـعتصم آسيا الصـغرى، وتقابلت مع الجيش البـيزنطى عند أنقـرة فالتـحم جيش المعـتصم به وأنزل به الهـزيمة، ثم انحـدر إلى عمـورية فى

جمادى الأولى سنة ٢٢٣هـ وضرب عليها الحصار، ثم ضربها بالمنجنيق، والدبابات، واشتد القتال حولها واستمر حوالى ستة شهور، تمكنت جنود المعتصم فى أخرها من دخول المدينة عنوة فى ١٧ رمضان سنة ٢٢٣ فقتلوا من أهلها وحمايتها حوالى ثلاثين ألفا، ثم دمروا المدينة وأحرقوها، وكثرت السبايا والأسرى منهم فى معسكر المعتصم، فسمح لأشرافهم وذوى المكانة منهم بتقديم الفدية المجزية وعفا عنهم.

رجع المعتصم بعد هذا النصر الحاسم على الروم فى عمورية إلى سامراء، وقد جلب معه أحد أبواب مدينة عمورية ذكرى لانتصاره العظيم، ووضع هذا الباب فى دار الخلافة ببغداد، وعرف باسم باب العامة، وكانت أنباء انتصارات المعتصم على ثيوفيل بيزنطة قد حركت مشاعر المسلمين فتصدى شعراؤهم بالمديح للمعتصم، من ذلك قول أبى تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب　　فى حدة الحد بين الجد واللعب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت　　عنك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد والمشركين ودار الشرك فى صبب

بناء مدينة سامراء:

مر بنا كيف اعتمد المعتصم على العنصر التركى الذى جلبه إلى دولة العباسيين، وكيف زاد نفوذ هؤلاء الترك واتسع سلطانهم، لدرجة استفحل خطرهم، ووقع المعتصم نفسه تحت تأثيرهم وبالتالى خضع لرأيهم، ولم يلبث هؤلاء الأتراك أن أصبحوا آفة على العامة من أهل بغداد، فكانوا يمرون فى الأسواق وهم على خيولهم تجرى بهم بسرعة فتصيب النساء والشيوخ والأطفال، وتلحق بهم الأذى، فيتحرك أهل بغداد ويثورون عليهم، ويقتلون بعضهم فى ثورة غضبهم لما أنزلوه بالضعفاء والنساء، ووجد المعتصم أنه لابد من تلافى هذا الشر قبل أن يستفحل من جانب جنوده فعول على أن يبنى مدينة جديدة فى مكان يبعد عن بغداد، لتكون مقرا لهؤلاء الأتراك، ويقال أن شيخا مسنا من أهل بغداد اشتكى للمعتصم وهو خارج من مصلاه يوم عيد الترك، ومما قاله المعتصم: لا

جزاك الله خيرا عن الجوار، جاورنا وجئت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم بهم صبياننا، وأرملت نسواننا، وقتلت بهم رجالنا. والمعتصم ينصت له فلما انصرف قرر بناء مدينة سامراء ليكون فيها متسع الأتراك وتم ذلك فى سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م.

تبعد سامراء حوالى ٦٠ميلا إلى الشمال من بغداد، وتقع فى مكان يسهل منه الوصول إلى بغداد فى نهر دجلة أو بالبر، وفى طرفها أقيم مسجد جامع، كما أقيم سوق لأرباب الحرف وأهل الصناعات، وأمر المعتصم بتجميل المدينة الجديدة ليتخذها حاضرة لملكه، فغرست بها الحدائق والأشجار، وزرعت البساتين، وشيدت المنتزهات، ولم يلبث العمران أن سعى إلى المدينة الجديدة، فارتفعت فيها القصور وتعددت فيها العمارات، ولذلك سميت سر من لرأى، وقد ظلت هذه المدينة محتفظة ببهائها وعظمتها حتى نهاية عصر المعتضد سنة ٢٨٩هـ فأصابها الدمار والخراب فأطلق أهلها عليها (ساء من رأى) ثم اختصر الاسم إلى (سامراء).

صفات المعتصم ووفاته:

تصفه المراجع بأنه كان سديد الرأى، قوى البنية، شجاعا ومن أشد الناس بطشا، تغلبت عليه صفته الحربية حتى لقب الخليفة القائد، وكان موفقا فى حروبه، ومن أبرز صفاته الصراحة وحب البساطة، ولكنه تشبه بملوك الأعاجم فى حياته، سمى المثمن لأنه الثامن من ولد العباس، وثامن الخلفاء العباسيين، وتولى الخلافة وهو ابن ثمانى عشرة سنة، وغزا ثمانى غزوات، وكانت خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر وخلف ثمانية ذكور، وثمانى بنات، وولد شهر شعبان وهو الشهر الثامن فى السنة، وتوفى وعمره ثمان وأربعون سنة (فى ربيع الأول سنة٢١٧هـ/ ٨٤٢م).

***

هارون الواثق بالله

٢٢٧ - ٢٣٢ / ٨٤٢-٨٤٧م

تولى أبو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم شئون الخلافة فى اليوم الذى توفى فيه أبوه، وكان يوم الخميس ١٨ من ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ، وأمه تركية تسمى قراطيس. أعتمد عليه أبوه المعتصم أثناء غيابه فى سامراء أثناء بنائها، كما انتدبه لبعض الأعمال الأخرى. سار على سياسة أبيه فى الاعتماد على الأتراك الذين كثر عددهم واحتلوا المناصب الكبيرة فى الدولة، وبلغت درجة اعتماده عليهم أن ولى آشناس التركى شئون القصر والدولة، وألبسه تاجا مرصعا بالجواهر، وبذلك كان أول خليفة فى الدولة يعين سلطانا شارك أباه فى ميوله المذهبية وآرائه الفلسفية، وتشدد فى نشر آرائه المذهبية خلق القرآن، فأثار بتشدده مشاعر أهل بغداد ضده، فسخطوا عليه وتآمروا على حياته وعلى دولته وتزعم هؤلاء المتمردين أحمد بن نصر الخزاعى سنة ٢٣١هـ، وأنكروا القول بأن القرآن مخلوق، وشنوا حملة شعواء على الواثق، ودعوا إلى عزله، وتشجيع احمد بن نصر لكثرة أتباعه، وحدد يوما لتنفيذ مؤامراتهم للإطاحة بالواثق، ولكن أخبار المؤامرة كشفت، وقبض على أحمد بن نصر، وسيق إلى سامراء حيث عقد له مجلس فيه قاضى القضاة أحمد بن داود الذى ناظر ابن نصر فى مسألة خلق القرآن، فتمسك ابن نصر بأنه كلام الله عز وجل ولم يعترف برأى المعتزلة فتناول الواثق، الصمصامة، وهو سيف له تاريخ فضربه على رقبته وطعنه فى بطنه، وحز رأسه، ثم أمر بحمله إلى بغداد حيث صلب بها عند باب الخزمى.

وضح تعصب الخليفة الواثق لمذهب المعتزلة فى كل تصرفاتهم، ففى سنة ٢٣١هـ حينما تم تبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين (وهو ما يعرف فى المراجع العربية باسم فداء خاقان نسبة إلى الخادم التركى - وكان الفداء الثالث فى العصر العباسى) كان مندوب قاضى القضاة الذى يشرف على تبادل الأسرى ويسمى أحمد بن سعيد الباهلى كان يمتحن أسرى المسلمين وقت تبادلهم فمن قال منهم بخلق القرآن، وبنظرية المعتزلة فى عدم رؤية الناس لله عز وجل يوم القيامة،

وافق هذا المندوب على إعادته لدولة بنى العباس وفدى أسيرا من البيزنطيين، ومن لم يعترف بهذه النظرية المذهبية ترك أسيرا فى أرض الروم.

آثر الخليفة الواثق أن يعيش حياة هادئة، فانصرف عن الغزو الخارجى فى آسيا الصغرى (مع دولة البيزنطيين)، وربما اضطر إلى ذلك بسبب المشاكل الداخلية فى دولته، أو أن هدوء الدولة البيزنطية ووقف إغارتها على أراضى المسلمين بعد وفاة الإمبراطور ثيوفيل وتوليته ابنه الصغير ميشيل الثالث وانشغاله بالفتن الدينية فى دولته، كان من الأسباب التى أدت إلى هدوء العلاقات بين بيزنطة ودولة بنى العباس. وقد بلغ حرص الواثق على استمرار هذا الهدوء أن عزل واليه على الثغور والعواصم وهو أحمد بن سعيد الباهلى عندما خرج من شاتية ضد الروم فغرق من جنده فير قليل فى نهر البدنون، وتصدى له أحد بطارقة الروم، ومع هذا فقد غنم الباهلى أعدادا كثيرة من البقر والغنم عائدا ولكن الواثق رأى أن يعزله، وولى مكانه نصر بن حمزة الخزاعى.

ويبدوا لى أن جنوح الواثق بالله إلى هذا الهدوء أو هذه الاستكانة كان راجعا إلى خوفه من ازدياد سلطان ونفوذ الأتراك الذين سيطروا على كل شىء فى الدولة حتى أصبح هو نفسه مكتوف الأيدى مسلوب الإرادة، وسيطغى سلطان الترك فى عصر الخليفة المتوكل الذى حاول أن يخفف من تسلطهم على الدولة فيقتلونه، ويولون بدله المنتصر الذى يصبح ألعوبة فى أيديهم.

والحقيقة أن ظهور الأتراك على مسرح الأحداث فى دولة بنى العباس أدى إلى إخماد نار الخصومة التى كانت مشتعلة بين الفرس والعرب من جهة ثم بين العلويين وبنى العباس أنفسهم من جهة أخرى مما مكن لنفوذهم فى الظهور والسيطرة على مقدرات الدولة والعمل على مصلحتهم فقط، وقد ترتب على ذلك ظهور الدويلات المستقلة وشبه المستقلة فى أطراف الدولة العباسية مثل الدولة الصفارية والسامانية والغزنوية، ودولة الأغالبة بتونس، والفاطمية بالمغرب، ثم الطولونية والإخشيدية بمصر، وبنى أمية بالأندلس، والدولة الزيدية باليمن، مما كان سببا فى تفكك الدولة الإسلامية، وانفراط عقدها إلى هذه الدول الصغيرة، وبالتالى إلى ضعف الخلافة العباسية واضمحلالها على المدى البعيد.